تاريخ إفريقيا الشمالية

تونس، الجزائر، المغرب الأقصى

من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م

شارل أندري جوليان

تعريب : محمد مزالي / البشير بن سلامة



طبع هذا الكتاب سنة 1968 ولم يصدر منه أي طبعة أخرى
حتى قامت مؤسسة تاوالت الثقافية بإعادة طباعته وتصفيفه

مؤسسة تاوالت الثقافية 2011
http://www.tawalt.com/

مقدمة الناشر

مهما قدمنا لقرائنا من أعمال تاريخية تتناول ماضينا المجيد، فنحن لا نوفي حضارتنا حقها من الدراسة والتقييم. وذلك أن عمليات التشويه والتحريف التي قام بها (هواة التاريخ) من المستعمرين والمبشرين إزاء أمجادنا ما تزال أثارها إلى اليوم. وقليلة هي الأقلام التي أخلصت لعلمها ونظرت للتاريخ نظرة موضوعية تستكشف الحقائق وتستنطق الأحداث وتتحسس لنصرة القضايا التحريرية العادلة تستشف طموح الشعوب وتتحسس تحركاتها. من بين هذه الأقلام وفي طليعتها نضع المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان الذي كرس جزءا كبيرا من حياته لإبراز تاريخ المغرب العربي ومتابعة أحداثه وتسجيل نضاله وتطوره. فقد عايش شعب المغرب العربي وكان شاهدا على سعى هذا المغرب نحو استقلاله ثم نحو تقدمه.

لكل هذه الأسباب، وتولى الأستاذان محمد مزالي والبشير بن سلامة منذ سنوات تعريب هذا الكتاب وسارعنا بنشره وها نحن نصدره للمرة الثالثة. فقد قدم المعربان للقارئ العربي وثيقة شاملة وصادقة عن كفاح المغرب وماضيه ومكوناته الحضارية، بل وعبقريته في شتى المجالات السياسية والفكرية. وكان هذا التعريب في مستوى النص الأصلي لما يحرك الرجلين من إيمان بأصالة ماضيهما ورسالته الخالدة.

أملنا أن يلقى هذا العمل الأضواء على تاريخنا ويزيح عنه غشاوة الأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة وان يفتح الأبواب في وجه الباحثين لمزيد الاستقصاء والدرس والتمحيص، خاصة وان هذه الطبعة تصدر في نفس الوقت مع طبعة ثانية للجزء الثاني للكتاب حتى يكون عملنا متكاملا متتابعا خدمة للتاريخ والثقافة في هذه الربوع.

الباب الأول

بلاد البربر

1 - الموطن

2 - المغرب الأقصى والجزائر وتونس

3 - الإطار الجغرافي لتاريخ أفريقيا الشمالية

أ - المواطن

1 - ضبط لتسمية البلاد وسكانها:

إن لإفريقيا الشمالية، المشتملة على المغرب الأقصى والجزائر وتونس، وحدة جغرافية اقتضتها مجموعة جبال الأطلس، ووحدة جنسية لكونها آهلة بالبربر ولكن ليس لها تسمية مضبوطة.

فقد أطلق اليونان اسم ليبيا على القسم الشمالي من إفريقيا الآهل بالبيض، وقابلوا بينه وبين الصحراء بلاد الاحابشن السود. وقيل أن يكون للفظة "إفريقية " (Africa) نفس المدلول الذي كان لكلمة ليبيا استعملتها رومة للدلالة على المقاطعة الموافقة لشمال شرقي البلاد التونسية. ثم أصبحت كلمتا إفريقيا وليبيا فيما بعد تعنيان القارة كلها.

وسمى العرب النازحون من الشرق كل البلاد الكائنة غربي مصر جزيرة المغرب وبصفة أدق سموا أقصى غربي المغرب Far West المغرب الأقصى.

وعرفت القرون الوسطى والعصور الحديثة الدول البربرية أو بلاد البربرية. وفي القرن التاسع عشر وضع الجغرافيون عبارة إفريقيا الصغرى ليدلوا على وجود قارة صغيرة واقعة ضمن قارة كبيرة وعبارة بلاد الأطلس لتأكيد أهمية تشكل الصخور Tectonique وكثيرا ما تجري على الألسن لفظة إفريقيا الشمالية الفرنسية وذلك من الوجهة السياسية. وفي بعض الأحيان تستعمل لفظة شمال إفريقي، وفي هذا مزج جديد لا طائل تحته بين إفريقيا الشمالية والشمال الإفريقي.

وأفضل تسمية هي: بلاد البربر إذ أن سكانها يكاد يكون جميعهم من البربر دون سواهم، وإن وجد بربر خارج حدودها.

ولم يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم، بل أخذوه من دون أن يروموا استعماله عن الرومان الذين كانوا يعتبرونهم أجانب عن حضارتهم وينعتونهم بالهمج Barbari ومنه استعمال العرب كلمة برابر وبرابرة (مفرد بربري).

وأطلق اليونان على جميع أهالي إفريقيا الشمالية أو الليبيين اسم قوم كانوا يعيشون

بين خليج سيرتا (Syrte) والنيل هم اللوبيون(Les Lebou) واستعمل القرطاجيون والعبرانيون نفس التسمية. وكذلك الرومان فقد عمموا اسم " الموريون " على جميع سكان بلاد البربر وكان الأول خاصا بسكان شمال المغرب الأقصى.

واليوم لا يعرف عامة الناس أن المغرب الأقصى والجزائر وتونس آهلة بالبربر. ويعمدون إلى تسميتهم عرب. أما الأهالي فكثيرا ما كانوا يسمون أنفسهم أمازيغ (مؤنثه تمازيغت وجمعه أمازيغن)، ومعناه " الرجال الأحرار"، ثم " النبلاء ". وقد أطلق هذا الاسم على قبائل عديدة قبيل الاحتلال الروماني.

2 - كتلة من المرتفعات:

إن "جزيرة المغرب" شكلها رباعي الأضلاع ممتد الأطراف مشتمل على مرتفعات تحوطها مياه المحيط أو البحر المتوسط ورمال الصحراء. وإذا كان من المحتمل أن يكون أهلها أتيح لهم في مطلع عصور ما قبل التاريخ الاتصال بأوروبا عن طريق الجسور التي كانت تربط إلى ذلك الوقت بين القارتين، كما أتيح لهم الاتصال بإفريقيا الوسطى عبر الصحراء التي لم تكن يومئذ على وحشتها الحالية، فإن انعزالهم في جزيرتهم طوال عصور التاريخ جعل تسرب التأثيرات الخارجية إليهم أعسر، وإن كان أشد عنفا، ومكن التقاليد المحلية من الصمود في وجه طوارق الأزمان.

وأضلاع هذا الشكل الأربعة متفاوتة الأبعاد. فبين رأس سبارتيل (Spartel) والوطن القبلي "1550 كلم" تقريبا، وبين رأس النون وقابس "2200 كلم"، وبين رأس سبارتيل ورأس النون أكثر من ألف كلم، وبين الوطن القبلي وقابس أقل من "400 كلم" وتبلغ المساحة الكاملة "930000 كلم مربع " وإذا استثنينا غربي المغرب الأقصى وشرقي تونس، فإن الأراضي المنخفضة قليلة، لكننا نجد بالخصوص سهولا مرتفعة ونجادا محاطة بكتل جبلية مستديرة الشكل تندمج في مجموعة الأطلس. ويرجح أن هذا الاسم بربري الأصل إلا أن شكله الحالي مستعار من جغرافية المغرب الأقصى القديمة وقد أطلقه المعاصرون على مجموع جبال إفريقيا الشمالية.

إن أكثر من نصف بلاد البربر يتجاوز ارتفاعها "800 م" وإذا كان معدل الارتفاع في تونس لا يتجاوز "300 م" تقريبا، فإنه يبلغ في المغرب الأقصى " 800 م"، وفي الجزائر "900 م". إلا أن تلك الأرقام " وهذا هو المهم " ليست ناجمة عن وجود جبال شاهقة إلا بنسبة

ضئيلة - فإذا بلغ ارتفاع جبل " تبقال " بالمغرب الأقصى " 4165 م" فإن أعلى قمة في الجزائر وهي قمة جبل شلية (أوراس) لا تبلغ إلا "2328م"، وأعلى قمة في تونس وهي قمة جبل الشعانبي لا تبلغ إلا "1590 م" فقط. ومعنى هذا أن بلاد البربر تخص بأن ارتفاع جبالها يتراوح بين "800" و"1200 م".

وفي بعض الأحيان يوجد تضارب عنيف بين هذه التضاريس وبين السهول. فجبال الأطلس في متيجة تشرف من علو " 1400 م " على مدينة البليدة الصغيرة الواقعة في أسفلها، ويزداد هذا التفاوت في المستويات بين قمم جرجرة ووادي الصومام الذي يحاذيها جنوبا، وبين الأطلس وحوز مراكش وبين الريف والبحر. ولكن الجبل في أكثر الأحيان ليس إلا الدرجة العليا من جملة درجات متساوقة فيبدو متواضعا في الأفق الذي يسده.

وهكذا نجد في جبال عمور جبل سيدي عقبة (1700م) يعلو سهل عفلو (1426 م) وكذلك الأمر بالنسبة للجبال التي تحاذي شمالا منخفض الهدنة (1890 م) (ارتفاع جبل بو طالب 1890م.) فهي تعلو نجاد سطيف (ارتفاع سطيف 1074 م).

إن تضاريس بلاد البربر أثرت بخاصيتين جوهريتين على مصير البلاد تأثيرا حاسما في أكثر الأحيان. فتجزؤ البلاد إلى أقسام مستقلة الواحد عن الآخر لم يكن خطرا على وحدة السياسية خلال العصور فقط، بل إنه ساعد في بلاد القبائل أو الأوراس مثلا على تكوين مجموعات بشرية لها خصائصها الذاتية، ولا تزال إلى اليوم صامدة أمام اكتساح التاريخ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الاتجاه العام للجبال حسب خطوط العرض جعل الاتصال بين الشرق والغرب سهلا نسبيا إلا أنه عدد من الحواجز ما بين الساحل وداخل البلاد. وإذا استثنينا ساحل المغرب الأقصى المواجه للمحيط الأطلسي وشرقي تونس فإن المغرب لا يكشف إلا عن وجه عدائي. وكان سالسطس(Sauste) لاحظ ذلك بقوله: بحر عارم اللج عديم المرافئ (حروب يوغرطه، الفصل 17).(Bell. Lng XVII) mare) saevum, importuosum ولذلك يتضح بسهولة لماذا دخل جميع الغازين بلاد البربر من أحد طرفيها. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الغزو الفرنسي. ولعل في ذلك تفسيرا لبعض ما لاقاه هذا الغزو من صعوبات.

3 - طور تكوين تضاريس القشرة الأرضية (orogénie):

إن هيئة الأرض المتصفة في آن واحد بالتكتل والتجزؤ والتي أثرت أيما تأثير على تاريخ بلاد البربر يتضح أمرها بالرجوع إلى أطوار تكون التضاريس. وبما أنها بقيت طويلا مجرد حاشية للقارة الإفريقية فقد خضعت لما خضعت له هذه القارة من تغييرات. ففي

الحقبة الأولية (L'ère primaire) وحتى قبلها غيرت سلسلة من الحركات والالتواءات عقبتها أطوار من الانجراف (érosion) ملامح هذه الأرض تدريجيا وعندما انخفض "شبه سهل ما بعد العهد الهرسيني (pénéplaine posthercynienne) وغمرته المياه ظهر موقع بلاد البربر طوال العصور الثانوية شبيها ببحر متوسط تخللته جزر وأغوار عميقة. وامتد من الغرب إلى الشرق على حاشية القارة الإفريقية التي بقي معظمها خارج المياه.

ويمتد طور الترسب الطويل الذي تلا ذلك إلى أوائل العصور الثلاثية أثناءها برزت بلاد البربر بروزا، وأصبحت تحت تبعية أوروبا الجيولوجية إن صح هذا القول: ذلك أنه في الوقت الذي انبثقت فيه الجبال " البيرينيه " (Pyrénées) ظهرت مجموعة من الجبال كأنها نوع من "ما قبل الأطلس" معقدة تراكبت فيها الرواسب (sédiments) الثانوية، والثلاثية التي التوت في عنف متفاوت القوة مع بقايا "شبه سهل ما بعد العهد الهرسيني" وقد ارتفعت هذه البقايا في نفس الوقت الذي ارتفعت فيه الجروفات.

وهذا الالتواء الأول نتج عنه تحول البحر الأبيض المتوسط إلى الشمال. ولكن هذه المجموعة من الطبقات الأرضية التي اعترتها التواء أخرى لم تظهر في شكلها الحالي إلا في النصف الثاني من الحقبة الثلاثية، في نفس الوقت الذي تكونت فيه جبال الألب (Alpes)، وتغير من ملامحها ما تغير. ولم تنفصل إفريقيا عن صقلية إلا في الحقبة الرباعية حيث وقع خسوف في الأرض فصل بين الريف وسيرانيفادا (Sierra Névada) وتولد عنه مضيق جبل طارق. إلا أنه يجب أن نلاحظ أن تضاريس إفريقيا الشمالية تطورت منذ أن تكونت بتأثير عاملين أساسيين: أولا الانجراف الذي فتتها بقوة تتفاوت شدة وضعفا بسبب اختلاف مستويات البحر خاصة. وثانيا النقل (remblaiement) الذي غشاها في الجهات المحرومة من مصب يصلها بالبحر، وخاصة في السهول المرتفعة الممتدة بين الأطلسين.

4 - المناخ:

إن سلطان المناخ على البشر أشد سطوة وأكثر تقلبا من مفعول التضاريس التي تتأثر به في شتى مظاهرها. ذلك أن الصيف الذي كثيرا ما يكون باكرا وخاصة كلما توغلنا في الجنوب يتبع الشتاء والشتاء يتبع الصيف في طفرة ومن دون تدرج. ومعدل درجات الحرارة على السواحل لا يفوق 25 درجة. لكن حر النهار يبقى منتشرا في الليل الثقيل. والهواء الرطب كثيرا ما يعترض الآفاق كأنه بخار رمادي. والشتاء معتدل، نير بصفة عامة، ولكنه لا يزود البشر بما يحتاجون إليه من طاقة ونشاط كما هو الشأن في

أوروبا. والتضاد يقوى إذا توغلنا في داخل البلاد. ففي الصيف يطول النهار ويجف الهواء وتعلو درجات الحرارة بسرعة وكثيرا ما يبلغ حدها الأقصى 40 وحتى 45 درجة.

غير أن كثرة الأمطار هي الظاهرة الرئيسية من الناحية البشرية: فإذا انفتح المغرب الأقصى انفتاحا إلى التأثيرات الأطلسية فإن وضعية التضاريس سواء بالجزائر أم بتونس تمكن رقعة ساحلية ضيقة من التمتع بكمية كافية من المطر. وبصفة عامة فإن الخط الذي يجمع بين الأماكن التي يبلغ نزول المطر فيها 400 مليمتر مواز للساحل الشمالي بمسافة تتراوح بين 100و200 كلم ولا تتجاوز هذا الرقم إلا نادرا. وبعد هذا الخط تبدأ السباسب (Steppes).

ولو أن ماء المطر كماء النيل يعد هدية تقدمها باستمرار آلهة قارة لهان الأمر ولكن كمية الأمطار كثيرا ما تتحول بسهولة إلى ثلاثة أضعافها من سنة إلى أخرى وأحيانا بنسبة أكبر. ولقد سجلت في "جلفة" كمية الأمطار النازلة سنة 1913 كانت 99 مليمترا مقابل 775 في سنة 1893. ولا شك أن الأمطار تتوزع تقريبا على أيام الشتاء دون سواه. ولكنها تتهاطل بغزارة أحيانا في بضع ساعات فسرعان ما تتضخم الوديان بالمياه الممزوجة بالطين بعد الجفاف. فلا غرابة إذن أن يبلغ إنتاج الحبوب في المغرب الأقصى 38 مليون قنطار سنة1941 وألا يتجاوز 4 ملايين ونصف قنطار في سنة 1945. وحتى بركة الأولياء فكثيرا ما تبقى عاجزة أمام بخل السماء.

5 - الحياة النباتية:

إن ما عليه الحياة النباتية اليوم في إفريقيا الشمالية نتيجة لظروف طبيعية ولعمل البشر كما هو الشأن في جميع البلدان العريقة في العمران. ويصعب في كثير من الأحيان أن نعرف بالضبط إلى أي حد أثر أحد هذه العوامل على الأخرى طوال آلاف السنين الأخيرة. إلا أنه مهما بلغ بنا الخيال لا يمكن أن نتصور أن هذا العمل قدر على تغيير معطيات التضاريس والمناخ تغييرا جوهريا.

والذي لا شك فيه على ما يظهر هو أن مساحة الغابات التي تبلغ اليوم 6 ملايين من الهكتارات تقريبا تناقصت خلال عصور التاريخ. فانتشار المزروعات وحاجة البشر إلى الوقود أو إلى مواد البناء وما قضمته أسنان الحيوانات، كل ذلك يعلل تعليلا كافيا تناقصيا الغابات ولو بصورة نسبية. وفي كثير من الأحيان حلت فعلا النباتات الشوكية والأراضي القاحلة محل الغابة. فلا مبالاة البدو الرحل ولا عداؤهم قضيا على الأشجار وخاصة الزياتين في جهات تشهد آثار المعاصر على وجودها فيها قديما. إلا أن إفريقيا

الشمالية رغم ذلك لم تكن أبدا منطقة غابات فسيحة على الأقل في عصور التاريخ وباستثناء بعض الجبال. ومع ذلك فإنه يجب ألا ننسى أن تزايدا في نمو الغابات قد حصل هنا وهناك منذ عصور التاريخ القديمة.

والواقع أن السباسب التي قد يكون تفوقها ازداد شيئا ما خلال آلاف السنين الأخيرة هي التي تلعب الدور الفعال في التطور البشري لإفريقيا الشمالية. فهي تفرض ظروفا حياتية تختلف بحسب تفاوت أهميتها. فتارة تبعد البشر أو تكاد. وطورا تضطرهم إلى حياة غير مستقرة توقعها حركة الفصول. وأخرى تتطلب صبرا وقناعة عندما تتوالى السنوات العجاف. وهي تحتل على الأقل نصف مساحة إفريقيا الشمالية بالرغم عن ارتفاع البلاد الذي من شأنه أن يعمل على التنقيص منها.

غير أنه يجب أن نتحرى عندما نشاهد اليوم مناظر البلاد فنظن أنها على حالتها تلك منذ القدم. فسهل "متيجة" كان جزء منه منذ ما يزيد كثيرا عن القرن مغمورا بالمستنقعات. ويجب أن نتخيل أرضا جرداء عند الوقوف أمام زياتين صفاقس. وحتى بعض أنواع النبات فإنها لم تكن موجودة في المناظر الطبيعية القديمة فشجرة الكلتوس (eucalyptus) الاسترالية الأصل دخلت البلاد في القرن التاسع عشر وشجرة كسيروفيل (xérophile) الأمريكية أدخلها الإسبان منذ ثلاث أو أربعمائة سنة ولكن حصل العكس في مواطن أخرى إذ لا شك أن بعض المدن الرومانية مثل "تيمقاد" (Timgad) أو "جميلة" (Djemila) لم تشيد أبنيتها الحية في مثل هذا الأفق العاري القاحل حيث نشهد اليوم أطلالها شاخصة.

6 - أقسام إفريقيا الشمالية الكبرى:

إن إفريقيا الشمالية ليست كتلة منسجمة بالرغم عن الظروف العامة التي اقتضت تضامنها المادي والبشري. ذلك أننا نميز اليوم بين المغرب الأقصى والجزائر وتونس، وهي أقطار لا تطابق حدودها مطابقة تامة الحدود التي تفرضها الجغرافيا وليس معنى ذلك أن هذا التمييز لا مبرر له. فقد برزت خلال آلاف السنين الثلاثة شخصية الجزأين المتطرفين من شمال إفريقيا واندرجت بينهما الشخصية السلبية "إن صح هذا التعبير". التي نسميها الجزائر. ولا شك أن خصائص هذه الأقطار تنمحي في بعض الأحيان ضمن ما تشيده السياسة من صروح تندمج فيها هذه الخصائص وتشوه. إلا أن انبعاثها من جديد يقيم الدليل على ديمومتها التي تعللها الجغرافيا في مظاهرها الأساسية تعليلا مرضيا على سبيل الإجمال.

II - المغرب الأقصى والجزائر وتونس:

1 - المغرب الأقصى:

إن وجه الشبه بين تضاريس غربي المغرب الأقصى وإسبانيا كبير جدا. فلو أمكن كما تخيل ذلك "تيوبالد فيشير" (Théobald Fischer) ضم تضاريس البلادين بعضها إلى بعض حول المفصلة المتمثلة في مضيق جبل طارق لطابق الريف سلسلة جبال البيتيس (Cordillère Bétique) ولقابلت مهاد تازة وسبو والغرب الأندلس. ولطابق أيضا الأطلس المتوسط الهضاب الإسبانية والأطلس الأعلى جبال "البيرينيه". وعلى العكس من ذلك يبدو المغرب موليا ظهره للجزائر. ويلتحم القطران في القسم الشرقي من المغرب الأقصى الذي لا يخضع لسلطة الجزائر الإدارية ولكنه تابع لها جغرافيا باعتباره امتدادا لسهولها العليا.

أما شمال المغرب الأقصى فهو منطقة جبلية أقل ارتفاعا من الأطلس إلا أن قربها من البحر المتوسط ووجود الأمهاد المحيطة بها أبرزا هذا الارتفاع. ومن هناك تبدو في وضوح سلسلة جبلية مقوسة طولها 300 كلم تجويفها متجه نحو الشمال وتسمى الريف. ثم إن بوغاز جبل طارق الذي هو مضيق قديم غمرته مياه البحر وآخر ممر لغربي الأطلس. لا يفصل المجموعة الجبلية الشمال إفريقية والسلسلة الجبلية الأوروبية إلا بفاصل ضيق لأن سلسلة "جبال البيتيس" امتداد للريف المغربي في الأندلس - وفي جنوب الريف تتتابع الجبال في شكل دائرات منتظمة ذات مركز واحد. وفي جبل زرهون ينتصب ضريح مؤسس الدولة الإدريسية.

وتمتد السهول والنجاد بين المحيط الأطلسي وسفح الأطلس. فالنجاد في الشمال بين طنجة وفاس في الجهة المسماة بالغرب أقل بروزا وكذلك الهضاب تحيط بالسهول المتكونة من الجروفات. والقسم الغربي من الطريق الرئيسية التي تشق البلاد عرضا والتي منها وصلت جيوش الغزاة الآتية من الشرق إلى الساحل الأطلسي يتكون من سهول نهر سبو وأحد روافده من اليمين وهو واد أناون (Innaouen).

وإذا كان لفاس ومكناس شأن كبير فالفضل يرجع إلى حد بعيد لكونهما واقعتين في مفترق طرق رئيسية. أما تازة فهي تشرف على الممر الواصل بين جبال الريف والأطلس المتوسط.

وفي الجنوب تبدو في جلاء النجاد المنضدة بين المحيط الأطلسي والأطلس في ما يسمى "بالميزتا" المغربية وهي هضبة ضخمة عتيقة مغطاة برواسب الحقبة الثانوية أو الثلاثية المتراكمة تراكما أفقيا.

ومن جهة المحيط يبدأ هذا النجد (horst) بسهل ساحلي يقل عرض رقعته حينا قرب الرباط و"مغادور" ويتسع حينا آخر فيبلغ 80 كلم في "دوكالة " ثم يرتفع تدريجيا إلى أن يصبح نجدا ممتد الأطراف خصبا يبلغ 700م ويشقه خور (Cañon) أم الربيع.

وتشتمل مجموعة الأطلس على سلسلة جبلية يبلغ طولها 700 كلم تسمى الأطلس الأصلي، متجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. ومنها يتفرع المتوسط نحو الشمال الشرقي، ونجاد الأطلس الجنوبي نحو الجنوب الغربي. إلا أن العلاقات بين هذه الأجزاء الثلاثة لا تزال غير مضبوطة على ما يظهر. فجبال الأطلس الأعلى ذات الصخور البلورية غربا حيث تشرف على سهل مراكش والسوس من ارتفاع 3000 أو 4000 م تتخذ شرق القلاوة حيث تتضاءل أهمية الصخور القديمة، أشكالا ضخمة ذات مظهر "جوراسي". والأطلس المتوسط جبل مرتفع متكون من صخور جيرية جوراسية ويغيب شبه سهل المنطقة الجبلية الوسطى ذو الصخور البلورية في الشرق تحت نجدي: "بني مطير وبني مقيلد"، وأرضهما رغاب ذات أخاديد. وقد تناثرت حمم البراكين الحديثة على هذه المنطقة الجبلية الوسطى، مما جعل المنظر الطبيعي شبيها بصفحة القمر متميزا بذلك ولا تبدو آثار الالتواء فعلا إلا على الحاشية الجنوبية والشرقية. أما جنوب الأطلس فهو أقرب إلى "الميزيتا" منه إلى سلسلة جبلية. وتشرف آخر جبالها الدنيا في الجنوب الغربي على المحيط الأطلسي قرب رأس النون. ويصل بركان "سروا" الكبير جنوب الأطلس بالأطلس الأعلى وعند سفحه يتحد سهل سوس. أما نجدا "الدراع" "تافلالت" فإنها امتداد له نحو الشرق.

ومن خصائص تضاريس المغرب الأقصى وجود مجموعتين من السهول تمتد الأولى من مصب "تنسيفت" إلى "الملوية"، وتحتوي على سهل ما دون الأطلسي وسهول نهر سبو (الغرب) ومعبر "تازة" وسهول الجهة السفلى من نهر الملوية الذي الطريق الكبرى الرابطة بين المحيط الأطلسي والجزائر رغم بعض العقبات. أما المجموعة الثانية فتتركب من سهل

حوز الذي يشقه نهر "تنسيفت" ومن سهل "تادلا" الكبير. والمواصلات ميسورة بين السهلين.

على أن المغرب الأقصى يدين أيضا بجانب طرافته لمناخه. وما تضفيه عليه هيئة التضاريس من شبه بمسرح مدرج يسمح للمؤثرات الأطلسية بالتوغل داخل البلاد. ولا شك أن الجفاف يشتد كثيرا جنوب أم الربيع. إلا أنه من النادر ألا تبلغ درجة الأمطار النازلة شمال الأطلس 200 مليمترا. ولم يفت الجغرافيين منذ العصور القديمة أن عبروا عن دهشتهم من ظاهرة مثيرة حقا للعجب في إفريقية الشمالية وهي وجود وديان تجري فيها المياه فقد لاحظ "بلين" (Pline) ذلك قائلا: "السبو هذا النهر الرائع".

2 - الجزائر:

لقد تبين الجغرافيون بالجزائر منذ أوائل الاحتلال ثلاث مناطق موازية تقريبا للساحل وهي: منطقة التل الأطلسي ومنطقة النجاد العليا أو بعبارة أصح السهول العليا، ومنطقة الأطلس الصحراوي. ولم يلاحظوا إلا مؤخرا اتصال الأطلسين في شرقي الجزائر.

ولهاتين السلسلتين الجبليتين خصائص متباينة. ففي التل الأطلسي تبدو بالأرض التواءات عنيفة وتقلبات عظيمة. أما الأطلس الصحراوي الالتواءات به أبسط بكثير وفيها تدرج رفيق نحو الصحراء. أما السهول العليا فليست منبسطة إلا نادرا على أن تضاريسها تختفي تحت كتلة مهولة من رواسب التل الأطلسي التي غمرتها.

وقد أكد الجغرافيون أنه يمكن تقسيم الجزائر إلى جزائر غربية، وجزائر شرقية وأعاروا هذا التقسيم أهمية أبلغ.

لا يظهر التقسيم المألوف من نجاد عليا وأطلسين يحيطان بها إلا غربي الجزائر. وهناك مجموعتان من السهول: فمن جهة غور الشليف الساحلي المتصل غربا بسهل سيغ وسبخة وهران، ومن جهة أخرى غور أوسط فيه سهول بسكرة وسيدي بلعباس وتلمسان، وقد أحاطت به جبال التل الأطلسي الصغيرة وهي: جبال ساحل وهران والظهرة شمالا وجنوبا، وجبل تسالة وخاصة جبل الورشنيس وهو أعظم جبل يحف بوادي شليف في غربي الجزائر.

أما الأحواض الموجودة في النجاد العليا التي لم تنحدر مياهها لا إلى البحر ولا إلى الصحراء هي منغلقة ذات تضاريس على نمط واحد تركد فيها الشطوط الكبيرة.

وتوجد بالجنوب جبال الأطلس الصحراوي القصيرة المتوالية وهي: جبال قصور وجبال عمور وجبال أولاد نايل التي تتتابع من المغرب الأقصى إلى الهدنة بصورة منتظمة، والتي تفصل بينها ممرات واسعة تسهل معها المواصلات وتشرف هذه الجبال من ارتفاع قدره ألف متر على الصحراء التي تختفي تحت كتلة من الرواسب المنجرفة من سفوحها.

وتفقد الجزائر في قسمها الشرقي هندستها العادية. ويبدو الساحل في غالب الأحيان رائعا، ولكنه لا يتيسر فيه العمران. ولا توجد السهول الساحلية إلا في طرفي هذه الجهة: ففي الغرب نجد سهل "متيجة" وراء هضاب ساحل مدينة الجزائر، ونجد في الشرق السهل المعروف بسهل عنابة الممتد على شكل هلال في جنوب جبل هدوق Edough. وكثيرا ما تنتصب الجبال على حافة البحر بالذات كجبل القبائل العظيم المتصل جنوبا بأعالي جرجرة الناتئة الكلسية أو اتجهنا أكثر نحو الشرق جبال بابور والمجموعة المتقطعة الممتدة من رأس "بوقرعون" إلى رأس الحديد (Cap de fer).

وليست جبال التل وراء المنطقة الساحلية من واد شلف إلا عناصر متوالية إلى الحدود التونسية فاقدة لكل المميزات لا يتجاوز البتة ارتفاع قممها 1800م تتخللها أحيانا سهول صغيرة وهي بقايا أحواض عتيقة جفت مياهها (سهل الميلية وقالمة) وتضطر طرق المواصلات إلى المرور من معابر (Cluses) ضيقة غائرة مثل مخانق بلسترو أو تلك التي يسميها الأهالي البيبان والتي شهرتها حملة "دوق أورليان" سنة 1839 تحت اسم (أبواب الحديد) (Portes de fer).

وتنتهي التلال العليا عند غور الهدنة والجبال الصغيرة للأطلسين المتصلين بعضهما ببعض بالقرب من خط الزوال بعنابة تخفف من حدة التلال العليا القسنطينية وتكسبها شيئا من التنوع.

أما الأطلس الصحراوي الذي تحافظ قممه الناتئة الحادة على اتجاهها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي فلا يقل وعورة عن التل الأطلسي. ويمثل جبل أوراس حزمة مرتفعة، ذات أوضاع عادية حيث توجد أعلى قمة في الجزائر (جبل شلية 2328 م) وتتخلله أودية ضيقة. وينفتح بين الأوراس من جهة وبلاد " بلازمة" وجبال زيبان من جهة أخرى ممر إلى الجنوب من وادي "واد قنطرة" الواصل بين التلال العليا والصحراء.

3 - تونس:

إن الحدود الحالية بين الجزائر وتونس لا تطابق الفاصل الطبيعي الذي يمكن تبينه إجمالا غربي هذه الحدود بالقرب من خط الزوال المار بعنابة حيث كانت حدود نوميديا الرومانية تقريبا.

والمنطقة الجبلية التي هي امتداد لجبال الأطلس الصحراوي تشق البلاد متجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ثم تنحدر شيئا فشيئا حتى هضاب شبه جزيرة الوطن القبلي وهي عبارة عن منت هي عظم الفارة (Epiphyse continentale) وهذه المنطقة التي تعرف بالسلسلة الظهرية تفصل في الواقع بين تونسين: تونس التل وتونس السباسب.

وفي التل التونسي الذي هو امتداد طبيعي للتل الجزائري توجد جهتان جبليتان تحيطان شمالا وجنوبا بالسهول التي يشقها وادي مجردة وروافده. فنجد من جهة الجبال المشجرة المتواضعة الارتفاع (يبلغ هذا الارتفاع 1200م فقط في القسم الغربي منها) ومنها جبال خمير ومقعد، ومن جهة أخرى نجد جبالا متشابكة عارية ذات أشكال ضخمة، وسهولا صغيرة تسمى أحيانا التل العلوي. أما الجهات التي يشقها واد مجردة فهي في واقع الأمر وحدات متمايزة. ويتسع وادي مجردة شرقا قرب الخليج حيث استقرت العاصمتان الكبريان للبلاد التونسية عبر التاريخ: أي قرطاج وتونس.

وتبدأ السباسب جنوب السلسلة الظهرية: فهناك السباسب العليا في الجهة الغربية من البلاد حيث تنتصب في الأفق الرتيب الجبال الكلسية العارية حتى جنوب قفصة، ومنه تبدأ الصحراء.وهناك السباسب السفلى في الجهة الشرقية وهي سهول مترامية الأطراف تمتد من الجبال إلى البحر على وتيرة واحدة، ما عدا جهة سوسة (الساحل) حيث تذكرك الهضاب بمنظر طبيعي "شبيه بالتل"

وليس وجود هذه السهول أدعى إلى الملاحظة من وضعها. ذلك أنها لسهولة المواصلات بينها، ولموازاتها للبحر على غرار سهول المغرب الأقصى الجهة الوحيدة "المنفتحة" في إفريقيا الشمالية بالإضافة إلى السهول المغربية.

إلا أنه بينما يتجه المغرب الأقصى اتجاها معاكسا لما ظل عليه تاريخ العالم حتى القرون الخمسة الأخيرة نرى تونس المتصلة اتصالا مباشرا بحوض البحر المتوسط والبعيدة عن أوروبا ب140 كلم فحيب تتأثر بمؤثرات آتية من الشرق والغرب على التناوب وبنفس السهولة.

4 - ما وراء البلاد:

ومهما ضبطنا الحدود الجغرافية لإفريقيا الشمالية فإن إطارها لم يفرض نفسه فرضا خلال التاريخ ومن يوم أن رسم الفيلان (Les Philènes) بتضحيتهم البطولية، على رغم ما ورد في الأسطورة، الحدود الفاصلة بين قرطاج وقريني (Cyrène) فإن إفريقيا

تنتهي عند "سيرتا" العظمى ولا تتعداها. وقد تأكدت تبعية بلاد طرابلس الشمالية للمناطق الموجودة غربا مرات عديدة عبر العصور. وفعلا فإن سهول السباسب في الجنوب التونسي وراء مهاد الجريد هي نفسها التي تتواصل في منطقة لا يتجاوز عرضها 200 كلم مارة بالجفارة على حافة البحر حتى تنتهي مثلها إلى ساحل منبسط. أما في الجنوب فإن حاشية النجاد الصحراوية هي نفسها التي تتكون منها جبال القصور والطنف الكلسي الذي يصلها بضواحي طرابلس والمعروف باسم جبل.

ومن جهة أخرى فإنه يتعذر عزل الصحراء عن إفريقيا الشمالية في بعض العهود على الأقل. وإذا اعتبر الأطلس الصحراوي حدا جبليا تبدأ بعده نجاد الحمادة الصخرية العارية ومساحات "الرق" الحجرية أو رمال "العرق" فإنه لا يكون حدا مناخيا وبالأحرى حدا بشريا. فأهل الشمال هم الذين حققوا استعمار المزاب الرائع وبالعكس فإن قبيلة ك(أولاد سعيد عتبة) النازحة من ورقلة إلى سرسو وهي التي تحيي مدة أسابيع قليلة من كل سنة أرض زناتة القديمة. إلا أن ظاهرة تعايش حضر الواحات والرحل التي تمتاز بهما الصحراء أي امتياز ليست أصالة بظاهرة صحراوية.

ذلك أن جانبا كبيرا من جنوب بلاد المغرب يعرف هذه الظاهرة. غير أن الخط الملتوي الصاعد أحيانا إلى التل والذي نرسم به على خرائطنا حدود البداوة لم تضبطه الطبيعة منذ الأزل على الأقل في تفاصيله وإنها لمشكلة من أعوص مشاكل تاريخ المغرب أن نهتدي إلى تغيرات هذا الخط.

III - الإطار الجغرافي لتاريخ إفريقيا الشمالية:

1 - بلاد تابعة:

إن ما عليه تضاريس بلاد البربر يسر دائما للقادة العسكريين احتلال البلاد بسرعة عن طريق السهول المرتفعة المتسلسلة من سيرتا إلى المحيط الأطلسي. ومن سوء الحظ فإن هذه الطريق الوحيدة طويلة وضيقة أكثر مما يجب فهي تغص وتنسد فتتعثر حركة المرور فيها. وإذا بالغزو "وقد بدأ أحسن بدء" يبقى تخطيطا سريع الانهيار (أ.ف.فوثيه (E.F.Gauthier).

فالمغرب هذا البلد الذي يتكون القسم الآهل منه على حد تعبير أ. ف فوثيه من "حاشية مديدة يبلغ طولها 3000 كلم ولا يكاد يبلغ عرضها 150 كلم" مع "وضع من أدعى أوضاع العالم إلى السخرية" قد أعوزه طبعا مركز جغرافي تتجمع حوله المقاطعات المختلفة. ومناطق الريف والسوس وخمير منعزلة عن الجهات المجاورة لها والأنهار التي قيل عنها في استعارة جريئته: إن الكثير منها "تجري ولا ماء" طيلة جزء من السنة هي طرق للمواصلات متواضعة في غالب الأحيان ليست لها قيمة اقتصادية تذكر. ثم إن التجزؤ الطبيعي ساعد على تكوين الخصائص الجهوية وأقر المتناقضات وحال دون اختلاط السكان.

2 - المغرب الأقصى:

ليس من الصعب أن نتبين إلى أي حد أثرت جغرافية المغرب في تاريخه. وبالنسبة للمغرب الأقصى يكفي الركون إلى ج. سليري (J. Célérier) الذي خص المسألة بدراسة شافية في "ذكرى هنري باسي" (Henri Basset).

ولئن لم يكن للحدود الطبيعية إلا قيمة نسبية فهناك مغرب أقصى ومتميز بحدوده الجغرافية هو المغرب الأقصى الذي يكون "جهة طبيعية ذات شخصية واضحة المعالم أيما وضوح. وبالرغم عما تصطدم به حركة المرور من عقبات بسبب المحيط الأطلسي والريف والأطلس والصحراء فإن المغرب الأقصى لم يبق في هذا الانعزال الموحش الذي

يؤكده الباحثون عادة: إن إدارة السلاطين خلال القرنين 18 و19 هي التي أغلقت الحدود التي كانت مفتوحة تماما في عهدي الموحدين وبني مرين. وقد تنازعت المغرب الأقصى في عصوره كلها مؤثرات أوروبا وإفريقيا المتوسطية وإفريقيا المدارية.

إن المغرب الأقصى جزء لا يتجزأ من الكتلة الإفريقية. لذلك فإن مؤثرات الصحراء وحتى الغزوات المنطلقة منها طبعت تاريخه بالرغم من العقبات الطبيعية. لكن المغرب الأقصى ليس عبدا للقارة الإفريقية. ففي إمكانه أن يتخلص من هذه التبعية، ويتجه إلى المحيط الأطلسي، بل على الأقل إلى البحر المتوسط الذي يضيق على سواحله إلى حد يفرض معه جاذبية الأراضي الإسبانية التي تكتشفها الأنظار من هذه السواحل. وإذا شارك الساحل المغربي في العصور القديمة في نشاط البحر المتوسط فإن تاريخه في القرون الوسطى بقي متصلا وثيق الأتصال بتاريخ إسبانيا، ولم يدفع بالمغرب الأقصى من جديد إلى إفريقيا إلا بعد الغزو الإسباني (reconquista) فاضطر إلى الانطواء على نفسه، خاصة وأنه كان عرضة لهجوم أعدائه في الدين من الضفة الأخرى. وهكذا لم يعد للمغرب الأقصى، وهو طريق الإسلام في غربي بلاد البربر، صلة بإسبانيا النصرانية. ولم يستفد حتى من الغزوات الشرقية التي كان يمكن أن يجنى منها ثمارا. لقد كان المغرب الأقصى معبرا للفاتحين، لا مستقرا. فقد استوطن الدخلاء في المدن التي كانت لها حياة وحضارة مستقلتان عن حياة القبائل وحضاراتها، ولم يكن للأرياف البربرية من معرفة بمجموعة المدن إلا ما كانت توفره لها من نهب ثروات القصور والمنازل الأسواق.

إن التأثير المزدوج لإفريقيا والبحر المتوسط يظهر في وضع المغرب الأقصى ومناخه اللذين طبعا البشر فأثرا في تاريخهم. والمنطقتان المتنافستان على مر الدهر أعني مملكتي فاس ومراكش، تعبران عما بين الشمال المتوسطي والجنوب الإفريقي المستند إلى الواحات من تضارب. فقد قال " سلريي": "يوجد بين الجبيلات والأطلس المتوسط عتبة مرور ممتازة تزيد أهميتها لالتقاء نهرين غزيرين بأم الربيع وهما واد العبيد والتسوات ولقربها من مناطق تادلة والحوز والدير والخصبة وكثيرا ما شهدت مقاطع هذه الأنهار معارك دامية".

وخلافا لما كان يجري في الجزائر فإن معالم دولة المغرب الأقصى لم تزل قائمة طيلة هذه المعارك المستمرة. وقد صمد حضر شمال المغرب أو البدو الذين استقروا بالسهول، أعنف صمود في وجه محاولات بدو الصحراء الذين كانت قد شلت حركتهم عقبة الأطلس الكأداء. وتمكن الحضر من الاستقرار في السهول المنفتحة ساعدهم على بسط سلطانهم وسهل عليهم فرض طاعتهم. لكن الجبال الوعرة - بلاد الصبا - كانت خارجة

عن سلطة " بلاد المخزن". وقد وفق البربر المعتصمون بالجبال في مقاومتهم لعزم سكان السهول على تعريبهم منذ أن شرع في ذلك إدريس الأول في القرن الثامن وعاشوا دائما في حالة حصار. ولم يمنعهم ذلك من أن ينزلوا من حين لآخر كتلا بشرية لا سبيل إلى صدها يقودها مؤسسو الإمبراطوريات. وإنما تاريخ المغرب الأقصى في مختلف تقلباته صراع لا يني بين الجبل والسهل.

وقد كانت للمغرب الأقصى عواصم سياسية أو ملكية تستجيب لحاجات معينة. فطنجة وهي ثغر إن لم نقل مستعمرة فينقية، وأكبر مدينة في موريطانيا الغربية حتى ثورتها على الملك البربري "بوغود" كانت في العهد الروماني عاصمة موريطانيا الطنجية التي لم تشتمل إلا على جزء من شمال المغرب الأقصى. وسواء كانت تحت سلطان البرتغاليين أو الإسبان أو السلاطين أو خاضعة للنظام الدولي الذي لم تزل عليه إلى اليوم فإنها استمدت قيمتها من وضعها في مضيق جبل طارق في المكان الذي يتسع فيه نحو المحيط الأطلسي. فلم تقم بدور عاصمة بقدر ما قامت بدور حارس الخطوط الأمامية بالنسبة للمغرب.

وكان لمدينتين أخريين: فاس ومراكش، تاريخ أكثر إشعاعا. أما فاس التي أسسها إدريس الأول وإدريس الثاني فقد ورثت الدور الذي كانت تقوم به وليلى (Volubilis) ولها فضل أكده "أ. ف. فوتيه": فيها الماء الذي تحتاجه المدن الشرقية أيما احتياج، هذه المدن لا يعرف أهلها كيف يجلبون الماء من بعيد ولا كيف يضمنون لمجموعة بشرية ما حاجتهم إلى الشراب. وهذا هو السبب الأصلي في ازدهارها. ولا يزال سكان فاس إلى اليوم يحمون ثروتهم من أعمال الري التي يطالب بها معمرو "السايس" ثم إنه يوجد فيها أيضا مواد البناء.

وبالتالي، فموقعها الوعر المساعد على حمايتها يستمد قيمته بالخصوص من كونه في مفترق الطرق التي تسيطر عليها وهي المواصلة إلى مراكش والرباط وطنجة وممر تازة. لذلك كان أسياد فاس هم دائما أسياد المغرب. ولم يتيسر لأية مدينة مغربية أخرى أن تكون جماع الدولة المغربية كما تيسر لمدينة فاس. لقد كانت في الواقع العاصمة السياسية والفكرية والدينية والاقتصادية. ويبدو مستقبلها التجاري لليوم لا حد له. وعلى بعد 60 كلم من فاس فقط في نفس هذه الجهة المحظوظة أسس السلطان مولاي إسماعيل في أواخر القرن السابع عشر على أنقاض بلدة عتيقة مدينة مكناس مقرا جديدا لملكه. وهذه المدينة المسيطرة على مفترق الطرق والغنية كجاراتها بالعيون ومقاطع الحجارة قد تصبح في المستقبل "قطب الرحى بالنسبة لقطارات المغرب

الأقصى" على حد تعبير الماريشال ليوتي. ولئن اتخذ الشمال مدينة فاس عاصمة له، فإن الجنوب جسم طموحه وكبرياءه بإنشاء مراكش. وهذه المدينة التي أسسها ابن تاشفين سنة 1062 لتكون قاعدة تنطلق منها حملات المرابطين رجال الصحراء على البدع التي دخلت الإسلام أصبحت عاصمة للدول التي بسطت نفوذها على أقصى الجنوب المغربي وظلت ثغر الأطلس الأعلى المتحسس أصداء الصحراء، والمستودع الكبير للواحات والجبال. ولا شك أن دورها كمركز توزيع سيزداد أهمية في المستقبل إلى حد أن أصبح تموينها اليوم بمثابة فريسة مغرية أخذت موانئ المحيط الأطلسي تتنازعها بعد. وستسيطر على شبكة من الطرق المؤدية "أولاها إلى أغادير مارة بايمنتقوت وتزي نماشو وثانيتها نحو تارودانت مارة بالغندافة وتيزنتست، والثالثة نحو الذراع مارة بالقلاوة وتزي نوتلوات" (ج سيليريي) وجعل الاحتلال الفرنسي من ميناء الدار البيضاء، وهو منفذ للشاوية ومركز تزود في طريق إفريقيا الغربية، العاصمة التجارية للمغرب الأقصى. كما جعل من الرباط التي أفل نجمها بعد ازدهارها في عصر الموحدين العاصمة الإدارية ولكنها بقيت رغم ذلك مدينة "المخزن" الوحيدة المتصلة بالمحيط.

وقد كان للمغرب الأقصى عاصمتان كبيرتان متطرفتان ولم تكن له أبدا عاصمة وسطى، اللهم إلا مدينة أوداية الأسطوية والبلدة العظيمة الموجودة في تدلا والتي يروى أن المرابطين دمروها. ولعله من الضروري كما بينه أ. ف. فوثيه (E.F Gautier) أن تشاد بهذه البقاع في وادي أكبر نهر بالمغرب الأقصى وهو أم الربيع، عاصمة المغرب الأقصى الحقيقية.

3 - الجزائر وتونس:

إذا أمكن أن نكتب تاريخا للمغرب الأقصى مستقلا بذاته فقد لا يمكن فصل الجزائر وتونس بعضهما عن بعض، وهما قطران لا يوجد بينهما حواجز طبيعية، وقد خضعا لنفس الضرورات.

وقد ألح أميل فليكس فوثيه (E.F Gautier) تأكيدا بالغا منذ ما يزيد عن ربع القرن في خصوص التضارب الظاهر من حيث الظروف التاريخية وأساليب العيش بين الجهتين اللتين يفصلهما ما سماه " سلسلة خط الدفاع" (Limes) أي القوس الجبلي العظيم الذي يكتنف الجزائر من الورشنيس إلى الأوراس. غير أنه يتعذر علينا "والحق يقال" أن نذهب مذهبه. ذلك أن بحثا أكثر دقة حول "خط الدفاع " هذا أظهر انه لا يطابق الجبال إلا في ثلث المسافة على الأكثر. فلا يتصور بالأحرى كيف أن هذا الخط كان في أي عصر من عصور التاريخ حدودا قائمة.

ويجب الاستنجاد بأسباب أخرى لتعليل تضارب صارخ في بعض الأحيان فقد بين "ج. ديبوا " (J. Despois) أنه بفضل ما توفره مياه التل المتصل بلا انقطاع من "أومال" إلى القيروان من إمكانيات الري أمكن " لحاشية صحراوية طويلة "أن تفلت من سيطرة الصحراء. فهذه الحاشية التي ترسم في اتجاه الجنوب حدود الحياة الحضرية التي لا نجدها فيما بعد إلا في الواحات المحظوظة وما تفرضه خطط الدفاع هو الذي يتحكم آخر الأمر في تنظيم خط الدفاع المتحدث عنه بينما لا يعرف البدوي من جهته حدا يقف عنده في ترحاله إلا العقبة الطبيعية التي لا يتمكن من تذليلها، ويمكن القول بأن انتشار البداوة خلال عصور التاريخ واسعا كان أم محدودا ظاهرة سياسية.

إن بلاد البربر عرفت بدون شك حياة الحضر منذ العصور الحجرية القديمة. ولا شك أيضا في أن حياة البداوة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ. فحتى القرن الثاني بعد المسيح على الأقل لم يزل البربر تتنازعهم الحياة الفلاحية والحياة الرعوية. فلم تكن المدن طيلة دهور إلا فسائل فينيقية غرست في أرض إفريقيا، ولم تتعدد مراكز الأهالي مثل "سيرتة" (قسنطينة) إلا حينما أجبر ملوك نوميديا البدو على الاستقرار. لكن العواصم البربرية رغم أنها تحمل عنوان ريجيا (Regiae) ليست إلا قرى متواضعة إذا هي قورنت بقرطاج التي أسسها الفينيقيون في أواخر القرن التاسع قبل المسيح في موقع بحري خارق للعادة هين الاتصال بالساحل والسباسب. ومنذ أن كانت مستودعا تجاريا إلى أن أصبحت عاصمة رومانية لم يزل إشعاعها متزايدا في ربوع المغرب. والتأثير البونيقي الذي استمر قرونا وقرونا لاح خاصة في تبسة وقالمة وقسنطينة وجهة عنابة. أما تأثير قرطاج الرومانية فإنه عم شيئا فشيئا المغرب كله.

وقد أنشأ استعمار الإمبراطورية الرومانية عواصم أخرى إلى جانب قرطاج. ففي نوميديا حيث تحول البدو الرحل إلى فلاحين بفضل سياسة مسينسا الحازمة ورثت رومة عاصمته سيرتة وهي قلعة رائعة تحميها مهاو وعرة لكنها متصلة اتصالا يسيرا بموانئ نوميديا ومدنها الكبرى. وأسس هذا الاستعمار أيضا في أواخر القرن الأول بعد المسيح موطن سطيفيس (Sitifis) الذي أصبح بعد قرنين أهم مدينة لمقاطعة موريطانيا السطيفية. وقد شيدت سطيف على سهل فسيح يفصله عن البحر جبل بابور في عصر كانت سطيفيس أولا وبالذات سوقا ومدينة إدارية وفي عصر وضعتها السلم الرومانية في مأمن من الأخطار.

أما عاصمة موريطانيا فهي عاصمة يوبا الثاني القديمة وتسمى قيصارية (Caesarea) (شرشال) وكان الميناء المستند إلى جبل خاضع لسيطرة الأهالي متصلا اتصالا هينا

بالمتيجة دون الجهات الغربية والجنوبية، بفضل الوثبة الفنية التي مكنها منها يوبا والإدارة الرومانية. وقد تمتعت هذه المدينة بهيبة عظيمة طيلة أربعة قرون.

ولم يشعر الوندال ولا البيزنطيون بضرورة تأسيس مدن أخرى. أما الغزاة فقد أرادوا بالعكس بناء معسكر يستعملونه قاعدة لمواصلة غزوهم. فبنوا القيروان من لا شيء في قلب البلاد التونسية بالسباسب بين البحر والجبال. واندثرت قرطاج أثناء المحنة، لكن الحضارة التي كانت تمثلها بقيت. فبالقرب منها وعلى أنقاض مدينة تونس (Tunés) العتيقة ازدهرت مدينة تونس الجديدة، فعلا شأنها علوا كبيرا في القرن الثامن بفضل موقعها في نهاية بحيرتها وفي مأمن من الهجومات البحرية.

وقد شاءت الدول التي قد يطول عمرها أو يقصر والتي تساوقها تاريخ المغرب في القرون الوسطى أن تؤسس عواصم خاصة بها تأكيدا لوجودها الذاتي فهي إما أحيت مدينة كانت موجودة من قبل أو اختارت مكانا بكرا حيث خططوا ما طاب لهم أن يخططوا. غير أن مصير هذه المدن لم يمكن دائما قدر واحد من الإشراق. فتلمسان مدينة بوماريا (Pomaria) العتيقة التي جددها الأدارسة والمرابطون وعاصمة بني عبد الواد وبني مرين (من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر)والتي ظلت زمنا طويلا أكبر مدينة في الجزائر الغربية تنازلت لفائدة (Présidio) زعامة وهران القديمة ولم تبق من عاصمتي بني حماد: بجاية والقالة إلا مدينة صغيرة نيطت إلى منحدرات جميلة الموقع بالنسبة للأولى (القرن الحادي عشر) وأطلال متداعية مشرفة على مهواها بالنسبة للثانية وأصبحت تاهرت الرستمية أو الاشير الصنهاجية مجرد ذكريات. ولم تعد المدن تستمد أسباب وجودها وبقائها حيث حدود السباسب أو التل. فالمركز التجاري البونيقي الذي أصبح فيما بعد ايكوزيوم (Icosium) الرومانية ثم الجزائر العاصمة التركية هو الآن الجزائر الفرنسية أي المدينة الرئيسية لبلاد الجزائر كلها.

4 - تاريخ قبائل:

لم تعرف بلاد البربر قط عاصمة قارة نهائية. ولم يتح لها البتة أن تحقق وحدتها حول عاصمة ما. وقد علل الباحثون ذلك بالتجزؤ الجغرافي وصعوبة الموصلات وانعدام الأودية الواصلة بعضها إلى بعض وعدم صلاحية الأنهار، وعداء البحر، وقلة الأراضي النافعة. كما عللوه بانعدام مركز طبيعي يفرضه وضعها الجغرافي. ولربما يجب أكثر من ذلك أن نذهب مذهب أ. ف. ڤوتية الذي يلاحظ سرعة الغزوات وقلة ثباتها في نفس الوقت، فنحمل المسؤولية على الصراع الدائم بين البدو والحضر الذي لم ينته بفوز واحد على

الآخر فإن هذه الثنائية التي تعذر القضاء عليها هي التي تعلل في الظاهر كيف أن بلاد البربر كان لها دائما "أسياد أجانب". ولعله من الواجب أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار أكثر مما اعتاده الباحثون الخلافات التي تجد بين أهل الجبال وأهل السهول. وهي خلافات يقويها بطبيعة الحال تجزؤ البلاد.

والذي يدرس بلاد المغرب لا يجد ممالك تتسع شيئا فشيئا إلى أن يعم سلطانها البلاد قاطبة، بل قبائل يوحدها زعيم جريء تؤسس ملكا بفضل غزوة جبارة، ثم تنهار تحت ضربات كتلة أخرى من القبائل. فليست المدينة أو التراب بالمقومين للوحدة الأساسية إنما المقوم هو القبيلة منفردة كانت أو متحدة مع جاراتها. ولا نعرف عن الحياة الداخلية لهذه القبائل شيئا يذكر، وأحيانا نجهل حتى وجودها. لذلك ليس شيء أدعى إلى خيبة الظن من تاريخ المغرب هذا الخالي من التواريخ المضبوطة والمكتوب بضربات السيوف. ولا مهرب للباحث مهما حاول من الاكتفاء بتاريخ الوقائع الحربية بسبب فقدان الوثائق. وإذن فهو معذور على غرار الشيخ سيلان إذا هو ترك إلى حد ما العنان لحماره عندما اعترضته شوارع جديدة. ولم يتمخض عن أحلاف القبائل شيء دائم بالرغم عن أن بعض الملوك الأصيلين كانوا مرموقين. والحال أن الأهالي كانوا يعلمون أنهم شعب واحد بما أنهم يطلقون على أنفسهم اسما واحدا، وكاد البربر في مرتين اثنتين أن يحققوا بوسائلهم الخاصة وحدة المغرب: الأولى في عهد العاهل (أغليد) مسينسا في القرن الثاني قبل المسيح، والثانية في عهد الدولة الصنهاجية في القرن الحادي عشر بعد المسيح وأخفقت هاتان التجربتان بمشيئة رومة الاستعمارية وبسبب زحف بني هلال. فاستنتج الباحثون من ذلك أن نجاح الوحدة مستحيل والحال أن البربري أبعد من أن يمثل نموذجا بشريا منقوصا، بل إنه أكثر من ذلك برز في شخصيات ممتازة ولكن بعضهم أكد أن هذا "الجنس المتمتع بحيوية لا تنضب ليست له شخصية إيجابية " وأنه يكتفي حتى في أبسط الأشياء بدور " الظل الأبدي" وأن المشكلة التاريخية ترجع إلى معرفة كيف "أن الخيبة المطلقة كانت نتيجة لتسلسل خيبات محدودة" (أ.ف. ڤوتية).

لقد رأينا أن البربري لم يصب بنقص جنسي، ولكن لعنة جغرافية نزلت عليه. لقد كتب أ.ف. ڤوتية في قوته المعهودة: "إن مدينة مستقلة بذاتها وفنا وأدبا وحتى لغة وشعبا شاعرا بوجوده ودولة منظمة هذه كلها كماليات باهضة جدا رأسمالية، والمغرب لم يستطيع قط التحصيل عليها بمفرده. فهذه البلاد الصغيرة لم يكن لها الجهاز المادي الضروري لتقيم البنيان الاجتماعي والسياسي الذي هو أساس كل مدينة".

ليكن ذلك. لكن هل يجب أن نستنتج من خيبة المحاولات حتمية الخيبة، وفي هذه

الحالة ألا يؤول بنا الأمر إلى أن ندين كل احتلال أجنبي مآله المنطقي كارثة على غرار كل احتلال قبله؟ وما كانت تكون سياسة مسينسا والملوك الذين تولوا الحكم بعده لو أنهم استطاعوا أن يحافظوا على علاقات سليمة مع عالم البحر المتوسط ولم يصطدموا بالاستعمار الروماني، واحتفظوا بكامل طاقتهم لتنظيم المغرب؟ ولئن كانت بلاد البربر في حاجة إلى الاتصال ببلدان أخرى فقد لا يكون من الضروري أن نستنتج أن خضوعها كان أمرا طبيعيا. ويظهر أن في تكرار ذلك أكثر من اللازم محاولة لتبرير وضعية تعود علينا بالفائدة تبريرا علميا. فيجب أن نحذر مغبة نظرة ميتافيزيقية على التاريخ قد تبدو منسجمة انسجاما سهلا جدا مع الواقعية السياسية. فإن الكثير من الأحكام غير القابلة للتعقيب على فلاحي روسيا أو الأتراك أو الصينيين أو الهنود امتحنتها الأحداث أيما امتحان. فعلى المؤرخ إذن أن يجتنب الاستنتاجات النهائية، وأن يكتفي بتسجيل القليل الذي نعرفه عن ماضي بلاد البربر، وذلك من غير أفكار قبلية ومع الحرص على طرح المشاكل على الأقل، إذا تعذر حلها.

الباب الثاني

1 - عصور ما قبل التاريخ مشاكل ومعطيات

2 - تطور عصور ما قبل التاريخ في بلاد البربر

3 - الصخور المنقوشة

أ - مشاكل ومعطيات:

1 - مشاكل ما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية:

إن مؤرخ عصور ما قبل التاريخ إذا رام دراسة إفريقيا الشمالية وجد نفسه أمام مشكلتين أساسيين تتفرع عنها في آخر الأمر جميع المشاكل الأخرى فعليه أولا أن ينسق ويوفق بين المعطيات المتنافرة التي يمده بها علم طبقات الأرض (جيولوجيا) وعلم الحفريات القديمة (بلنتلوجيا) وعلم وصف الإنسان (انتروبولوجيا) وعلم الآثار. وعليه أن يربط بين النتائج التي انت هي إليها وبين ما وصل إليه علم ما قبل التاريخ من معلومات بالنسبة لأوروبا وإفريقيا والشرق المتوسطي. وبعبارة أخرى فإن عمله يقتضي ضبط تواريخ نسبية للمعالم التي خلفها الإنسان الأول ومقارنتها بالتواريخ التي حدد ج.دي موريتيي أصولها سنة 1869 بواسطة تصنيف النماذج الصناعية وقد عدلت منه طبعا الاكتشافات التي تمت بعد ذلك التاريخ تعديلات ملموسة.

والعناصر التي يستمدها علم ما قبل التاريخ من العلوم التي يضطر إلى تسخيرها لحاجاته لا تؤلف من سوء الحظ مجموعة متماسكة من حقائق قارة غير مقدوح فيها. ومن شأن الاكتشافات الجديدة أن تنقض دائما النظريات السابقة لأوانها حتما والتي ينتهي إليها الباحث بطبيعة بحثه. ورغم ذلك إن الاختصاصيين لا يتفقون عادة على نسق واحد وإن كان وقتيا. ومعنى هذا أن مؤرخ عصور ما قبل التاريخ يقيم بناءه الضعيف على أرض لا استقرار لها - مثله كمثل منازل اليابان يهددها الزلزال دائما.

فإذا كانت هذه هي ظروف البحث بالنسبة لعلم ما قبل التاريخ، فإنه من اليسير أن نعرف أسباب التضارب الموجود في كثير من الأحيان بين شتى الافتراضات التي ينتهي إليها هذا العلم. ويتعذر اليوم كما تعذر سنة 1930 أن نقرر نتائج نهائية في هذا الباب. لذا سنكتفي، كما فعلنا منذ عشرين سنة، بضبط الحد الذي وصلت إليه المناقشات. إلا أن الحلول الحالية قد تكون أثبت من سابقاتها. وهذا ناتج أولا عن أننا واصلنا بحوثنا منذ عشرين سنة بإفريقيا الشمالية وخاصة بالمغرب الأقصى، وثانيا عن أننا اجتنبنا زيادة في التحري محاولة ربط عصر ما قبل تاريخ بلاد البربر ببقية العالم بصلات تبين ضعفها

كم من مرة. لذلك سيجد القارئ في هذا الكتاب مجموعة من المعلومات هي تحليلية أكثر منها تأليفية.

ويبدو أن المظهر الجغرافي للبلاد لم يتغير تغيرا محسوسا منذ أن دخلت بلاد البربر التاريخ أي منذ أواخر الألف الثانية قبل المسيح تقريبا وقد استمر بطبيعة الحال التأثير اليومي للانجراف والترسب معا، في سرعة غير مشعور بها، ولكنه لم يغير إلا القليل من مظهر الأرض هنا وهناك، كما وقع في مصب نهر السيبوز ومصب نهر مجردة. أما الحجج التي تزعم إثبات تغيرات مستوى البحر في عصور التاريخ فقد أقيم الدليل على أنها مجرد خيالات.

وفي الواقع لم يتغير المناخ هو أيضا وربما كان أكثر رطوبة مما هو عليه اليوم بسبب تضاؤل النبات- نقول ربما. وفي الواقع لم تقم حجة جديدة ضد نتائج بحوث ستيفان قزال (St. Gsell) المؤيدة لاستقرار مناخ إفريقيا الشمالية منذ 3000 سنة على الأقل.

أما في عصور ما قبل التاريخ، فقد كانت بلاد البربر تختلف عما هي عليه اليوم اختلافا قوى كلما اقتربنا من أوائل تلك العصور فالإنسان الأول الذي ظهر في إفريقيا الشمالية، أي أقدم إنسان عثر على أثر له إلى هذا اليوم، عاش منذ ثلاثمائة أو أربعمائة ألف سنة تقريبا. والثلاثون أو الأربعون قرنا التي يذكرها إنسان هذا العصر بصورة تتفاوت وضوحا تبدو متواضعة للغاية بالنسبة إلى ماضي البشريات المتعاقبة المدهش. إلا أن نفس المنظر الطبيعي لم يزل يشاهد أطوارها المختلفة. أما في عصور ما قبل التاريخ فإن المدنيات هي التي تبدو بالعكس قارة بالنسبة للطبيعة المتبدلة. والبشر الذين نجد آثارهم في الأحافير(Fossilles) تأملوا مناظر طبيعية تختلف عما نراه اليوم. ومظاهر التضاريس وخاصة السواحل لا تماثل ما نجده اليوم. والمناخ خاصة وبالتابع المياه والنبات والحيوان المتأثر بأحوال المناخ جميعها لم تكن على ما أصبحت عليه اليوم. فالذي ينتظره مؤرخ ما قبل التاريخ من الاختصاصيين الآخرين هو في آخر الأمر أن يمكنوه من ربط مصير الأجناس المنقرضة بتقلبات العوالم الميتة. فإلى أي حد هذا ممكنا الآن ؟.

2 - معطيات الجيولوجيا:

إن علم طبقات الصخور الخاص بالحقبة الرباعية البحرية وهو المرجع الوحيد لمؤرخ ما قبل التاريخ في دراسته لإفريقيا الشمالية يعتمد في خطوطه الكبرى على التصنيف الذي وضعه ش.ديبري (Ch. Depert) منذ ما يقرب من ثلاثين سنة. ويقوم هذا التصنيف على وجود شواطئ متحجرة في مواضع مختلفة من البحر المتوسط، ويكتشف الباحث

هذه الشواطئ في مستويات معينة أو يزعم أنها معينة ويجد فيها بقايا حيوانات متماثلة. أما اختلاف هذه المستويات فيعزى إلى حركات استاتيكية (Eustatique) ناجمة عن ظواهر التجلد والذوبان. وكاد الباحثون أن يجمعوا على التناسب الآتي:

1 - الصقلي (90 100- م) يناسب آخر عصور ما قبل الجليدي.

2 - ميلازي (55 - 60 م) يناسب عصر ما بين الجليدي قونز(؟) مندال.

3 - التيريني (28 - 30 م) يناسب عصر ما بين الجليدي مندال- ريس.

4 - المنستيري أو قريملدي(15 - 20 م) يناسب عصر ما بين الجليدي ريس- ورم

5 - والعصر الحالي ما بعد الورميني أو ما بعد الفلاندري بحسب رجوعنا إلى التجليد الأخير أو الفيضان البحري الذي تبعه.

لكن هذا التخطيط الذي يرتاح إليه الكر أيما ارتياح لم يلاق من سوء الحظ إجماع علماء الجيولوجيا، بل يمكن القول بأن أغلبهم يرفضونه اليوم. ففريق يأبى أن يقر الترابط المشار إليه آنفا بين مختلف مستويات المميزة للساحل المتوسطي وبين عصور ما بين الجليدي، خاصة وأن التجلد الذي قرره قونز مشكوك في صحته عند الكثيرين، وفريق آخر أشد احترازا من الأول لا يكتفي بمهاجمة نتائج بحوث ش.ديبري وأتباعه فحسب، بل ينتقد الملاحظات التي تعتمد عليها هذه النتائج. وحتى الذين يقبلون التخطيط جملة فإنهم يعترفون بأنه يوجد فيه بعض المتناقضات التي كثيرا ما تنال من مدلوله العام. فكيف يمكن لعلم ما قبل التاريخ أن يقرر، على أسس مشكوك فيها إلى هذا الحد، تواريخ نسبية لم يقدح أحد من قبل في صحتها ؟ وبالإضافة إلى ذلك فمن الواجب أن نؤكد أن علم الجيولوجيا تنتهي مهمته المتواضعة أو تكاد حينما نصل إلى العصر الحجري القديم.

وتصنيف ش.دي بيري -و إن أصبح مجرد افتراض للبحث بصورة وقتية على الأقل- فإنه إطار مناسب يمكن أن نسجل فيه المعطيات الخاصة بالعصر الحجري القديم أو المعطيات الأثرية على أساس أنها مجرد إمكانيات. وترجع أقدم آثار للإنسان في المغرب الأقصى في الحد الذي بلغته معلوماتنا، إلى عصر ما بعد الصقلي وما قبل الميلازي حسب نظرية أبداها أ.نوفيل وأ. رولمان وتبناها الأب هـ.بروي. أما في الجزائر فإن بعض المعالم يجب إرجاعها حتى إلى الفيلافرانشي حسب الاكتشافات الحديثة التي قام بها س.أرمبورغ في عين الحناش بجهة سطيف. إلا أن الإجماع لم يحصل حول هذه النقطة أيضا وبقى باب

المناقشة مفتوحا بين أنصار التواريخ "المحدودة" أي الذين يجعلون أوائل العصر الحجري القديم في ما بين الجليدي ريس- ورم وأنصار التواريخ "الممتدة" الذين يجعلونها في عصر ما بين الجليدي قونز- مندال.

وحتى لو ذهبنا مذهب أ. رولمان في تناسب "الكلاكتو- أبيفلي" مع عصر ما بين الجليدي " قونز ميندال "و "الابيفيلي" (شيلي) مع عصر ما بين الجليدي "مندال-ريس" والآشولي وهو معاصر تقريبا للموستيري السفلى" ويناسب عصر ما بين الجليدي "ريس-ورم" فإن ذلك لا يعني أن هذا التناسب يصح على إفريقيا الشمالية كلها. فلم يتيسر ضبط طبقات الصخور إلا بفضل ما اكتشف في مقطع سيدي عبد الرحمان بالقرب من الدار البيضاء - إلا أن أسس هذا الضبط نفسها مشكوك فيها كما سبق أن أسلفنا. والذي تمتاز به بلاد البربر هو "التفوق المطلق" لمراكز السطح التي توجد فيها معالم ما قبل عصور التاريخ....

3 - معطيات علم العصر الحجري القديم (باليونتولوجيا):

بالرغم من أن معطيات البلينتولوجيا أقل فيما يتعلق بضبط التواريخ من معطيات الجيلوجيا فإنها تمتاز بأنها أصح. وهناك أمر رئيسي يبدو ثابتا هو استمرار نوع واحد من الحيوان في إفريقيا الشمالية طيلة غالب الحقبة الرباعية - وهو نوع من حيوان البلدان الحارة الرطبة له خصائص النوع "التشادي-الزمبيزي". والأجناس التي تدل على وجودها أحافيرها (Fossiles) المخلوطة بآلات العصر الحجري القديم هي الفيل (Elephas atlanticus) وفرس البحر (hippopotamus amphibus) والكركدن (rhinocéros simus) والبقريات، والزرافات والظباء والنعام ولم يعثر على الأيلات والحيوانات اللبونة آكلة اللحوم إلا ابتداء من العصر الحجري المتوسط (موستيري) وهي أجناس نزحت من الشمال وأعطت الحيوان في المغرب صفة الاختلاط هو حيوان إفريقي أوروبي آسيوي في نفس الوقت ولكن دخول هذه الأجناس الأوروبية التي دفعها إلى الجنوب تفاقم المناخ الناتج عن أحد التجلدات (قد يكون تجلد "ريس") لم يستمر بعد العصر الحجري المتوسط بسبب انفصال إفريقيا عن أوروبا.

وهذا الانفصال مضافا إلى تناقص تبادل الحيوان مع جهات إفريقيا المدارية والاستوائية إلى حد التوقف عند انتصاب الحاجز الصحراوي هو الذي سيعطي حيوان إفريقيا الشمالية صفة الحيوان "المنعزل" "المتبقي". وإن هذه الميزة تظهر منذ العصر الحجري القديم وهذا النوع من الحيوان سيتطور شيئا فشيئا من نوع الحقبة الرباعية إلى النوع

الحالي وذلك باضمحلال بعض الأجناس (س.أرمبوغ). وتنحصر أجناس الحيوان الجديد التي ظهرت فيما بعد في بعض الحيوانات الآهلة كالحصان في الألف الثانية، والجمل قبيل حقبتنا على أغلب الظن. أما زوال بعض الأجناس فيظهر أنه كان من عمل الإنسان وحده. فعمليات الصيد الكبرى في عصور ما قبل التاريخ وحاجات الجيوش القرطاجية ومتطلبات الملاهي الرومانية خاصة تبين بيانا كافيا لماذا لم يبق هذا الجنس أو ذاك إلى يومنا هذا. ومنذ القرون الأولى من حقبتنا أصبح الفيل مجرد ذكرى. أما النعام فقد تبقى حتى القرن السابق في جهة "داياس" ولم ينقرض آخر أسد من أرض يوبا إلا في نفس العهد وقد قال هوراس: "Léonum arida nutrix (Horace, ode i, 22,15-16)".

وإن تشابه شكل الحيوان في الحقبة الرباعية من جهة، وخصائصه المكونة من جهة أخرى تسمح للباحث بأن يقرر أن المناخ بقى حارا رطبا حتى العصر الحجري القديم الأعلى على الأقل. ومما لا شك فيه أن هذا المناخ لم يكن متشابها دائما. وقد تكون أغزر الفترات أمطارا قابلت مختلف فترات التجلد. إلا أن تواضع ظواهر التجلد في أطلس المغرب الأقصى -وهي الجهة الوحيدة من بلاد البربر التي لوحظ فيها هذا الأمر- يكفي لإقامة الدليل على أن المناخ في نفس هذه المدة لم يكن شديد البرودة. ويجب من جهة أخرى ألا نتصور بلاد المغرب في عصور ما قبل التاريخ على نحو ما نرى الكنغو اليوم مثلا. وإذا كانت مياه وديان الحقبة الرباعية، وخاصة وديان الصحراء، أغزر بكثير مما هي عليه الآن فإنه من المستبعد جدا أن خضعت هذه الوديان لظاهرة التناوب بين غزارة المياه وجفافها أو على الأقل قلتها المفرطة. ولم يتطور المناخ نحو الجفاف إلا في عصر ما بعد المنستيري أو إذا أردنا العصر العتيري. والدراسات التي تناولت فحوم أحافير الحقب الأولى في جهة تبسة أظهرت أن العصر القفصي الأعلى تطور في كنف مناخ شبيه بمناخنا شبها كبيرا. وشأن النبات كشأن الحيوان هو يتغير بعمل الإنسان لا بتأثير الطبيعة. فتعمد قلع الأشجار وتوسيع مناطق الزراعة وكذلك نمو الحياة الراعوية كلها أساسية لانجراد بلاد المغرب.

4 - معطيات النتروبولوجيا:

يحسن أن نقف عند أحد أنواع الحيوان أعني الإنسان. ولا يوجد إلى اليوم أية وثيقة أنتربولوجية يمكن معها رفع جهلنا للإنسان الأول الذي عاش على أديم إفريقيا الشمالية، وآلاته وحدها هي التي دلت على وجوده، إلا أن بعض الاكتشافات الحديثة ألقت أضواء بالغة الأهمية على البشرية التي كانت تعيش في المغرب الأقصى الحالي أثناء العصر الحجري المتوسط. ولندرس أولا إنسان الرباط؛ فبالرغم عن أن الأجزاء المكتشفة سنة 1933 لا

تتعدى في الواقع قسما من الفك العلوي مع القسم الأمامي من الفك السفلي. فإنها تسمح بأن نؤكد أننا أمام شاب صغير (عمره 16سنة تقريبا) له خصائص جنس عريق في البدائية. ويجب أن نضع إنسان الرباط بالنسبة إلى تطور الجنس البشري مع إنسان نياندرتال (Néanderthal) إن لم يكن أقدم منه باعتبار بعض الخصائص التشريحية التي تقربه من السيننتروب (Sinanthrope). ورغم أن علماء الجيولوجيا لم يتفقوا على سن الحجارة الرملية التي وجدت فيها هذه الأجزاء فإنه يبدو من الجائز أن نعتقد أن إنسان الرباط معاصر للموستيري وربما كان أقدم منه-وأن نفس الخصائص النياندرتالية ونفس دلائل البدائية هي التي نجدها في البقايا البشرية المكتشفة منذ سنة 1939 بطنجة (في مغارة العالية على بعد 13 كلم في الجنوب الغربي من هذه المدينة). وأن الحفريات التي لا تزال متواصلة لا تسمح إلى حد الآن بأن نستنتج بوثوق الدور المضبوط الذي يجب إسناده إلى هذه الآثار في علم الطبقات بالنسبة إلى العصر الحجري المتوسط. إلا أنه يبدو أن سنها لا يزيد كثيرا عن سن إنسان الرباط.

فوجود جنس النياندرتاليين أو جنس شبيه به على الأقل في إفريقيا الشمالية أصبح اليوم أمرا ثابتا، لكن بالنسبة للجزء الغربي من البلاد فقط لحد الآن. ويجب أن نلاحظ أيضا أننا لا نعرف شيئا عن أصل هذا الجنس ولا عن مصيره بعد العصر الحجري المتوسط. فالحلقة المفقودة من الواجهة الانتروبولوجية هي بين العصر الحجري المتوسط والعصر الحجري الأعلى. ويطلق عامة على إنسان العصر الحجري الأعلى اسم إنسان مشتى العربي، وهو اسم "المحلزة " (Escargotière) القريبة من شاتودان دي رومل (قسنطينية) التي أكتشفها ج.مرسيي سنة 1907. وقد تعددت الاكتشافات منذ هذا التاريخ خاصة في مقاطعة قسنطينة، وأهمها من دون شك تلك التي وفق إليها س.أرمبورغ في مغارة " أفالوبورمال" على بعد 30 كلم شرقي بجاية. والحفريات التي أنجزت بين سنة 1927 و1930 كشفت معظمة بأتم معنى الكلمة، ومكنت الباحثين من أن يدرسوا ما يقرب من ثلاثين نموذجا عثر عليها في ظروف ينتفي معها الشك من حيث علم طبقات الصخور. وهي نماذج إنسان مديد القامة (معدل مترو 72) مستطيل الرأس أو متوسطه طويل الأعضاء، خشن الوجه بهيمي السحنة وخاصيته الرئيسية أن جميع نماذجه المعروفة قد قلعت القواطع من أسنانها.

ويبدو أن هذا الجنس عاش في إفريقيا الشمالية كلها، لأن آثارا له قد اكتشفت في الواجهة الأطلسية من المغرب الأقصى (دار السلطان بالقرب من الرباط) وخلافا لما كان يظن من قبل فإن هذا الجنس لا يرتبط فقط بإنسان نياندرتال، بل بالإنسان العاقل

(homo sapiens). وبصورة أدق فإن إنسان مشتى العربي يذكرنا بجنس "كرومانيون" (Cro-Magnon). ونماذج هذا الإنسان ليست من جنس واحد ولكنها تنحدر من فرع واحد أصله من القسم الشرقي من البحر المتوسط (بول فالوا) وهذا النموذج البشري الذي انتشر في عصر المحلزات (Escargotières) دام إلى ما بعد العصر الحجري الأعلى وحتى إلى العصر الحجري الحديث المنتسب إلى القفصي إذا اعتبرنا أن الغونش القدماء سكان جزر الكناري عاشوا في هذا العصر كما ذهب إلى ذلك ر.فيرنو. أما فيما يخص الآثار التي قد يكون خلفها هذا النموذج البشري في السكان البربر فإن ما انتهت إليه البحوث الأنتروبولوجية في إفريقيا الشمالية لا يسمح بأي افتراض جدي في شأنها. وكذلك لا نعرف شيئا كثيرا عن وجود عناصر زنجية في عصور ما قبل التاريخ ببلاد البربر. وإذا سلمنا كما يراه البعض بأن جنس قريمالدي (موستيري) أصله إفريقي فإننا نجهل هل هو انتقل إلى أوروبا من المغرب أم لا إذ لم يعثر إلى يومنا هذا على ما يشهد بوجوده في هذه البلاد. وأقصى ما يمكن أن نذهب إليه هو أن نتساءل: هل يمكن لإنسان " أسلار" الذي اكتشف هيكله سنة 1927 في وادي أحد روافد النيجر وهو التلمسي وله وجوه شبه كبيرة بإنسان قريمالدي وبالسكان الحاليين لإفريقيا الجنوبية، أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأن السود تجاوزوا "منذ العصر الحجري المتوسط وربما العصر الحجري الأعلى" الحدود الشمالية للغابات الكبيرة. غير أنه يجب أن نلاحظ أن بعض الهياكل العظمية المكتشفة في بلاد البربر لها خصائص زنجية لا يمكن دحضها.

5 - معطيات علم الآثار:

وإذا مكنتنا الجيولوجيا والبلينتولوجيا من تصور الوسط الذي كان يعيش فيه إنسان ما قبل التاريخ ومكنتنا الانتروبولوجيا كذلك من تصور هذا الإنسان نفسه فإن الأدوات التي تركها وما يتبعها من أمتعة هي التي تلقي بعض الأضواء على مدينته. ومن سوء الحظ فإن علم آثار ما قبل التاريخ يخضع لظاهرة بعيدة الأثر من حيث نتائج البحث وهي أن غالب مراكز التنقيب سطحية ومعنى ذلك أن معطيات علم الآثار لا ترتكز بصفة عامة على علم طبقات الصخور. وهذا ما يعطي قيمة كبيرة للملاحظات التي يمكن تسجيلها في الحالات التي تسمح فيها التوبوغرافيا بتنضيد المستويات المتتابعة. ويدل على ضعف التواريخ التي لا تعتمد إلا على التشابه التيبولوجي. فإذا ذكرنا " الشيلي" و"الاشولي" و"الموستيري" في إفريقيا، فلا يعني ذلك أكثر من أن وجوه شبه فنية تسمح بالمقارنة بين أدوات إفريقيا الشمالية والأدوات الأوروبية المنسوبة إلى هذا الصنف. ولكن لا سبيل إلى استنتاج أي شيء يتعلق بأصل هذه الصناعات أو بتواريخها

ولم تسفر المجهودات التي بذلها ر.نوفي وأ.رهمان للمقابلة بين العصر الحجري القديم في المغرب الأقصى، والعصر الحجري القديم في أوروبا الغربية حسب تصنيف الأب بروي، إلى أي نتيجة ثابتة.

وكذلك لا شيء يسمح إلى حد الآن باعتبار المتماثلة أو المتشابهة المعثور عليها في تراب إفريقيا الشمالية متعاصرة. فقد تكون بعض الصناعات قد ثبتت بعد ظهور صناعة أخرى تلتها. وهكذا تدل الحفريات الأمريكية في طنجة على أنه يوجد في نفس المستوى عدد يكاد يكون متساويا من الشظايا الراجعة إلى العصر " اللفلوازي" ومن الأسنان الراجعة إلى العصر الموستيري. ويظهر أن مدينة العصر النيوليتي دامت في بعض جهات من بلاد البربر إلى أوج الحقبة التاريخية، وحتى إلى العهد الروماني، إذا اعتبرنا بعض الخصائص كبناء المصاطب مثلا ويذهب بعض مؤرخي ما قبل التاريخ إلى الاعتقاد بأن الصناعات الموجودة في إفريقيا الشمالية يمكن أن يكون غالبها صناعات متأخرة.

وليس من الصعب ضبط تواريخ الأدوات ضبطا نسبيا فحسب، بل كذلك معرفة تتابعها. فقد تكون الصناعات مجتمعة في جهة ومتفرقة في جهة أخرى وما نلاحظه من نقص أو شذوذ ليس إلا نتيجة لتسرع في ضبط طبقات الصخور. وهكذا فقد تمكن م. ريقاس من أن ينسب الأدوات المذنبة (pédonculées) إلى العصر "العتيري" أي العصر الحجري المتوسط، بينما نسبها ب. بلاري إلى العصر النيوليتي (بربري) أي أنه أمكنه أن يصل بين مستويين أثريين متتابعين. ويتضح مما سبق لماذا اضطر مؤرخو ما قبل التاريخ إلى استعمال ألفاظ مضطربة. والذي يجب اجتنابه هو أن يدل اسم واحد على مجموعة صناعات قد تكون متشابهة، لكن لا تتجاوز علاقاتها مجرد الشبه. ومن ذلك تعددت الوجوه تعددا غير موفق في بعض الأحيان خاصة أن بعض الأسماء قد تدل على نفس المسمى فليس وهراني هـ. بروي ور.فوفرى سوى الموريسكي-الإسباني المنسوب لب. بلاري، ولو سمى "مويي" لكان ذلك أفضل. "وقفصي ج.مورغان" حل محل "جيتولي ب.بلاري" وإن لم يختلف عنه قط. والذي يؤسف له هو وجود أسماء متولدة عن نظريات خيالية في بعض الأحيان ومن ذلك أن لفظة "مورسكي إسباني" كان يقصد منها تأكيد بعض العلاقات الأثرية بين غربي بلاد البربر وإسبانيا. ولكنه ثبت منذ ذلك الوقت أن هذه العلاقات ضرب من الأوهام. وإذا عقد هذا الاضطراب مهمة الاختصاصيين فإنه يجعل مهمة الذين يمهدون إلى دراسة ما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية أشد دقة. وكم

نرجو أن يتم الاتفاق بين الاختصاصيين لا على الأسماء نفسها. إذ نكون بذلك كلفناهم أكثر مما يطيقون. بل في أقل على المبادي التي تعتمد في تسمية مختلف الصناعات.

II - تطور عصور ما قبل التاريخ في بلاد البربر:

1 - العصر الحجري الأدنى والمتوسط:

لقد ثبت أنه يوجد في إفريقيا الشمالية أدوات تماثل في فنونها وأشكالها الصناعات التي تعرف في أوروبا بالأسماء المألوفة الآتية: الشيلي والأشولي (بالنسبة للعصر الحجري الأدنى) والموستيري (بالنسبة للعصر الحجري المتوسط). وإذا استثنينا آثار ما قبل العصر الحجري القديم (éolithes) المنسوبة لشتمة (قرب بسكرة) وقفصه، فإن أقدم آثار للعمل البشري هي في الوقت الحاضر ما اكتشفه س.أرمبورغ سنة 1948 بالقرب من سطيف، أي ما يقرب من أرعين كرة حجرية ذات جوانب منحوته. ويلي ذلك الرحماني وهو اسم أطلقه ر.نوفيل وأ. روهمان على مجموعة الأدوات المكتشفة بمقطع سيدي عبد الرحمان بالقرب من الدار البيضاء، وهي أدوات توجد من حيث طبقات الصخور في أعلى الرواسب البحرية المنسوبة إلى العصر الصقلي، والمتشابهة خصائصها مع خصائص مجموعة الأدوات المنسوبة للعصر الكلكتوني أو الابفيلي أي الشيلي. وتعتبر مناجم المغرب الأقصى مواطن البحث عن العصر الحجري القديم الشمال الإفريقي لأهميتها في علم طبقات الصخور، لكن من دون أن تنسينا المراكز المكتشفة قبلها وخاصة مركز بحيرة القرار بشمال تلمسان الذي يستمد أهميته من وجود حيوان المناطق الحارة الفيل الأطلسي(éléphas atlanticus) والكركدن الموريطاني (rhinoceros mauritanius) وفرس البحر (hippopotamus amphibus) ومن صناعة منتسبة إلى العصر الاشولي في آن واحد.

لقد كان يظن بعض الباحثين مثل ج. موغان وب.بالاري أن الشيلي والاشولي والموستيري تكون صناعات ثلاثا "لا تمحى روابطها" وفعلا فقد اكتشفت في جهة قفصة آلات منتسبة لهذه النماذج الثلاثة المختلط بعضها ببعض. وفي مقطع "مارتان" بالقرب من الدار البيضاء نجد الشيلي والآشولي مجتمعين كذلك. وبات من المسلم به اليوم أن هذه الصناعات الثلاث ليست معاصرة بعضها لبعض، ولكنها تتابعت على النحو الذي توالت فيه بأوروبا. الاشولي يبدو مرحلة متطورة عقبت الشيلي. وفي كلتا الصناعتين نجد أن "الدبوس" هو الآلة الأكثر دلالة على ذلك العصر، لكن أشكالها البدائية في

أول الأمر كانت تحسنت شيئا فشيئا من جهة، وتنوعت من جهة أخرى، طيلة العصر الاشولي وحل ر.فوفري على ما يظهر المشكلة المطروحة من سنة 1887 بعد التنقيبات التي قام بها م.كلينيون في جهة قفصة فأثبت أن اهتزازا تكتونيا هو السبب في تضارب الموستيري والاشولي.

ويظهر أن "الموستيري" المتأخر عن "الاشولي" بفترة قد تكون طويلة لم يتفرع عن المصنوعات ذات الوجهين التي كان متوجها لها بل تفرع عن نموذج يختلف اختلافا كبيرا عن المصنوعات المسماة بذات الشظايا وقد أطلق عليها اسم الفلاوزية:(Le valloisien) وأهم خصائص هذه الأدوات "الموستيرية" كالأدوات الحادة والمكاشط تمكن أولا وبالذات في فن نحتها وفي مدى حرص أصحابها على فن التشذيب.

ويظهر أن النماذج الموستيرية تطورت إلى أشكال مذنبة (pédonculées) هي من خصائص "عتيري م.ريقاس" (Reygasse) (وهو اسم أخذ من مركز بير العتير في بلاد النمامشة بالجنوب الغربي من مقاطعة قسنطينة)والظاهر أنها هي نفسها تطورت في الصحراء بدون واسطة إلى أن أصبحت مصنوعات للعصر النيولوتي. لكنه يجدر أن نلاحظ أن الموستيري لم يتبع بصفة منتظمة الاشولي الذي يبدو أنه تطور في ظروف غامضة جدا إلى صناعة سماها م.ريقاس السبيخي (نسبة إلى برج السبيخة بجبل درامين في الجنوب الشرقي من مقاطعة قسنطينة) وهذه المصنوعات المتجسمة في أدوات حادة على شكل أوراق الشجر والشبيهة بالأشكال السولوترية (solutréenne) قد تكون هي الحد الذي انتهت إليه المصنوعات ذات الوجهين بإفريقيا الشمالية.

وبدهي أننا ندعي في هذه اللمحة تلخيص الآراء التي أجمع عليها مؤرخو ما قبل التاريخ تلخيصا أمينا. إننا حرصنا على تضمين ما اتفقوا عليه أكثر من تضمين ما اختلفوا فيه. فعندما ننظر في المشكل الرئيسي، وهو مدى هذا التطور في الزمان يتعذر الظفر بأغلبية يمكن الاطمئنان إليها. فالهوة سحيقة بين الذين يرون مع الأب هـ.بروي (H. Breuil) أن هذه المدة "مفرطة في البطء" وبين الذين يعتقدون مع م.بول (Boule) أنها قصيرة، وبعبارة أخرى بين الذين يعتبرون الشيلي معاصرا لتجلد قونز (Günz) وبين الذين يرون أنه معاصر للفترة الأخيرة من عصر ما بين الجليدي. وهكذا فالفرق يعد بمئات الآلاف من السنين. ومهما يكن الأمر فإنه يجب التأكد بأن مدة العصر الحجري الأدنى سواء في إفريقيا الشمالية أو غيرها طويلة جدا، لا بالنسبة لعصور التاريخ فقط، بل بالنسبة إلى العصر النيولوتي أيضا وحتى بالنسبة إلى العصر الحجري الأعلى (Paléolothique supérieur).

وإذا اعتبرنا جملة ما تعاقب من آلاف السنين الغامضة، وجدنا أن الإنسان قد مرت به ظروف غريبة. فنحن نجهل كل الجهل ما يتصل بالبشر الذين خلفوا لنا الأدوات الشيلية والآشولية. ولم تزدد صورة الإنسان وضوحا بالنسبة إلينا إلا في العصر الموستيري أو قبله بقليل عند اكتشاف إنسان الرباط: وهو شخص قصير القامة، عظيم الهامة، طويل الوجه، مفلطح الجمجمة محدود المدارك العقلية محروم علي ما يظهر من كل "المشاغل الجمالية والأخلاقية" (بول فلوا Boule-Vallois) شأن أمثاله من نياندرتاليين (néanderthaliens) إذ كان يجد ضرورات عيشه اليومي في طبيعة حارة رطبة تزدحم فيها حيوانات مخيفة. ولا شك أنه ليس من التهور أن نعتقد أنه كان لا يخضع في آخر الأمر إلا إلى متطلبات غريزة البقاء.

2 - العصر الحجري الأعلى:

إن العصر الحجري الأعلى بإفريقيا الشمالية تمثله مراكز يفوق عددها بكثير مراكز العصر الحجري الأدنى، خاصة إذا نحن كما يشاء البعض، (R. Vaufrey, A. Ruhiman) أدخلنا ضمنه العتيري الذي يقحمه آخرون في العصر الحجري المتوسط (مثل ريقاس Reygasse) والذي تكثر مظاهره في البلاد جميعها. وليس معنى هذا أن كثرة الوثائق هي التي ساهمت في حصول الاتفاق بين الاختصاصيين بل يمكن أن نذهب إلى عكس ذلك. غير أنه يظهر أن أمرا وقع التسليم به: وهو وجود "مقاطعتين" أثريتين تمثل الأولى القفصي والثانية الموبي الذي هو ليس سوى "مظهر جانبي" للأول. ومن غير شك لا يمكن إثبات المعاصرة المطلقة للصناعات التي يختص بها هذان الطوران غير أنه من المرجح على الأقل أنهما تفاعلت إلى حد ما على مر الدهور.

وكلمة القفصي مأخوذة من مراكز واقعة بجهة قفصة (باللاتينية كبسة Capsa) في الجنوب الغربي من البلاد التونسية حيث لاحظ ج. مرغون (J. de Morgan) وجود الطور القفصي الأول مرة وأهم مركز يمثله هو مركز المقطع. وهو معروف كذلك باسم آخر نبذه اليوم الباحثون بصفة عامة وهو الجاتولي (ب.بلاري(P. Pallary). ورقعة انتشاره هي جنوب التونسي وخاصة جهة قفصة بالذات، وجنوب مقاطعة قسنطينة. غير أن اكتشافات حديثة بينت أن حدوده الجنوبية لا تتفق مع الحد الشمالي للصحراء كما كان يظن. ويظهر أن منطقة الصناعات القفصية كان لها إشعاع منذ الطور القفصي الأعلى في بلاد المغرب بحيث نجد أنفسنا أمام نوع من الاستغلال الذي يتوغل في الجهات المتاخمة ويؤثر في الصحراء حتى قبيل العصر الحجري الحديث.

إن القفصي هو فترة "المحلزات " (Escargotières) أولا وبالذات. وأطلق عليها هذا الاسم لاتابي (Latapie) على هضاب اصطناعية لا يتجاوز علوها عشرة أمتار ويمكن أن تبلغ أبعادها المتفاوتة إلى أقصى حدود التفاوت الخمسين مترا عرضا والمائة والخمسين مترا طولا. وهذه الهضاب تكونت بتراكم الرماد والأدوات والهياكل العظمية البشرية والحيوانية، وخاصة أصداف الحلزون التي منها اشتق الاسم الذي أطلق على هذه الهضاب. غير أنه يجدر أن نلاحظ أن مثل هذا التراكم المعقد يوجد في بعض الخبايا تحت الصخور كخبية كلاريون (l'Abri Clariond) قرب أم العرائس بالجنوب التونسي. وهذه الأجزاء المتنوعة تمثل ما تبقى من المخيمات والقرى القديمة. وتخص مجموعة الأدوات الموجودة في هذه الأمكنة بظهور الحجارة المنحوتة الدقيقة ذات الأشكال الهندسية والأزاميل الصغيرة التي تضخم عددها أثناء تطور العصر القفصي. وكثافة هذه "المحلزات" في بعض الجهات كبيرة جدا. فلقد اهتدى "لاتابي" إلى 42 "محلزة" في دائرة يقدر نصف قطرها ب30 كلم حول تبسة ودابروج (Debruge) على طريق "كرناي" بالجبل. كما اهتدى فورتاس (Fortas) إلى ست "محلزات" في مساحة قدرها 12 كلم. ويمكن أن نعد هذه "المحلزات" بالمئات بالنسبة إلى إفريقيا الشمالية كلها إذا لم يقارب عددها الألف.

وبينما نجد تشابها في العصر الحجري الأدنى بين نماذج أدوات إفريقيا الشمالية وأوروبا الغربية فإنه لم يلاحظ أن خصائص المصنوعات القفصية كانت توجد في مصنوعات السواحل الشمالية للبحر المتوسط. ولذا فإنه أصبح اليوم لا يعتد بالافتراض القائل بأن الاورينياسي (l'Aurignacien) هو من أصل قفصي. فالقفصي الأصيل، بمعنى القفصي الأدنى، لم يبلغ البتة البحر ولم يقدر على الوصول إلى صقلية وإيطاليا. أما أصوله فالأفضل أن يبحث عنها في مصر حسب ر.فوفري (R. Vaufrey) غير أن المقارنات من حيث التواريخ التي أمكن ضبطها بين القفصي وبين " سبيلي" (Sébilien)- جهة أسوان - ليست من الصحة بحيث تسمح بتجاوز الاحتمال إلى اليقين.

وإذا استثنينا جهة التلال المنفعة في وهران والجزائر، حيث تنتقل مباشرة من الموستيري أو العتيري إلى الحجري الحديث، فإن الجزء من إفريقيا الشمالية الذي لا يسيطر عليه القفصي أي الواجهة الساحلية منه هو من مشمولات "المويبي" (Mouillen) وقد اكتشف هذا الأخير لأول مرة سنة 1908في مويه (Mouillah) قرب مرنية غربي مقاطعة وهران. غير أن لفظة مويبي بقيت قليلة الاستعمال وقد فضلت عليها قديما كلمة الإيبري موريزي(Ibéro-Maurusien) التي اقترحها ب. بلاري (P. Pallary) وعوضت الآن بكلمة وهراني التي تخيلها هـ.بروي (H. Breuil).

ولا بد أن تكون هذه الصناعة التي "لا يوجد أفقر منها" كما قال ر.فوفري شكلا متطورا من القفصي. وهي بالفعل قريبة جدا من القفصي الأعلى ولا تختلف عنه إلا "بانعدام الأدوات الحادة الكبيرة والمتوسطة ذات الحد الساقط (à dos abattu) وبقلة الحجارة المنحوتة الدقيقة ذات الأشكال الهندسية" (ر.فوفري) وبالعكس فإن الشفرات الصغيرة ذات الحد المقوس (à dos rabattu) هي أهم ما في هذه المجموعة من الأدوات. وهذا يدعونا إلى التفكير في أن هذه المدينة "القفصية" قد عمت شيئا فشيئا وخطوة خطوة معظم البلاد البربرية أو كادت وإن فن الصناعة الذي تمثله حل محل صناعات العصر الحجري المتوسط الموجود تحت "المويبي". ولقد أجمع الباحثون اليوم على رفض صحة العلاقات الأثرية بين هذه الصناعة وبين صناعات إسبانيا التي أريد من لفظة "ابيري موريزي" التعبير عنها.

ولا يمكن طبعا تحديد الفترة التي ولدت فيها وترعرعت المدنيات القفصية المويبية تحديدا مدققا. غير أنه لا بد أنها تلت نهاية فترة التجلد الأخيرة التي حصلت حسب جير (Geer) قبل المسيح ب 14000 سنة، ولا بد أنها سبقت من جهة أخرى النيوليتي الذي يظهر أنه عاصر الفترة التي تقدمتما قبل عهد الأسرات بمصر، وهي فترة انتهت حوالي سنة 3500 قبل المسيح. ولذا فإنه يستبعد أن نخطيء إذا قلنا: إن أكبر جزء من العصر الحجري العلى في إفريقيا الشمالية يمتد من سنة 10000 إلى 5000 قبل المسيح.

وأثناء هذه الفترة الطويلة جف المناخ شيئا فشيئا حتى وصل إلى درجة قريبة من الدرجة التي نعرفها الآن. ورغم ذلك فإن الفيل والبقر والغزال والكركدن والنعام بقيت تجوب الأرض المغربية. وبدون شك فإن جني الثمار والصيد هما اللذان كانا يأخذ القسط الأكبر من نشاط الإنسان. غير أن إنسان مشتى الغربي كان ينتمي إلى فصيلة الإنسان العاقل (Homo sapiens) فهو يجهل الحيوانات الآهلة، إلا أن المشاغل الجمالية لم تكن غريبة عنه إطلاقا، كما تدل على ذلك الأشكال الهندسية التي اتصفت بها آلاته، وكما تدل على ذلك النقوش التي يخطوها على قشور بيض النعام كنقش الحيوان المجتر الموجود بواد منقوب قرب أولاد جلال في مقاطعة قسنطينة، أو الأصداف المثقوبة التي كانوا يستعملونها للتجميل: وينزل هنا الإنسان في غالب الأحيان على مقربة من الوديان أو العيون، وتوجد منازله التي يعيش فيها عيشة الحضر حتى في الجبال كما تدل على ذلك اكتشافات أ. روهمان في الأطلس المتوسط.

3 - العصر الحجري الحديث:

إن العصر النيوليتي في إفريقيا الشمالية نتيجة اتصال التقاليد المحلية بما ورد من الخارج. ومعنى هذا أن بعض العناصر التي هي في الحقيقة من العصر النيوليتي كالأدوات المصقولة والآنية الخزفية قد اختلطت بأشكال القفصي والموبي المتطورة. ولقد اقترح ر.فوفري، وله الفضل في اكتشاف هذا الاتصال أن نميز بين عصر نيوليتي ذي تقاليد قفصية هو بدوره منبثق عن القفصي المثالي بواسطة ما يسميه هو ما بين القفصي والنيوليتي، وبين النيوليتي الموسوم بالطابع الوهراني هو نفسه عن الموبي.

ولا شك أن العهد النيوليتي الشمال إفريقي حديث العهد نسبيا. ويظهر أنه لا يسبق بكثير الأربعة آلاف سنة قبل المسيح وأنه امتد إلى قلب العصور التاريخية. فانعدام فترة انتقالية تالية للعصر النيوليتي هي بالفعل من خصائص ما قبل التاريخ في إفريقيا الشمالية ولهذا فإن الفينيقيين أسسوا مراكزهم التجارية الأولى في عالم ذي مدينة نيوليتية. والصحف التي خصصها هيرودوت لإفريقيا تلتقي هنا وهناك أضواء خاطفة على ذلك. غير أن ربط بلاد البربر بعالم المدنيات المتوسطية لم يكن على ما يظهر نتيجة الانفصال التام عن العادات العريقة في القدم. فلاشك أنه استعملت سهام من الحجر مدة طويلة بعد ذلك. وكذلك لم تهجر الملاجئ النيولوتية فجأة واستمر السكان إلى قلب العهد الروماني على ما يظهر يرصفون صخرة على صخرة لبناء مساكنهم وهي المصاطب(dolmens).

وأثناء العصور النيولوتية أخذت طبيعة إفريقيا الشمالية تقترب شيئا فشيئا مما هي عليه الآن فتفاقم جفاف المناخ وتغيرت " الفونا". فاختفى فرس البحر والفيل الأطلسي وأصبح وجود الكركدن نادرا جدا وأصبحت الأيلات هي الأجناس المختصة بهذا العصر. وأخيرا ظهرت الحيوانات الآهلة وخاصة الفرس والكلب. والسكان هم أما من آخر أحاد إنسان مشتى العربي أو الممثلون الجدد للجنس المتوسطي فلم تحدث في ذلك الوقت أية ثورة جنسية غير أننا كثيرا ما نعاين من وقت لآخر تأثير عناصر زنجية بالجنوب التونسي في "الرديف" مثلا. وتغيرت الحياة الاجتماعية، وظهرت الفلاحة ونمت. وإن بقيت صناعة الحجارة هي الصناعة الأصلية فلم تعد هي الوحيدة، وتحسنت شيئا فشيئا. وحلت أدوات الحجارة المصقولة، وخاصة الفأس، محل أدوات الحجارة المنحوتة. وتكاثرت مع مرور الزمن الأمتعة المصنوعة من العظام، وظهرت خاصة آنية الفخار بدائية بعيدة عن الجودة إلا أنها تشهد باعتناء أصحابها بالناحية الجمالية. فلقد بقيت آثار الزخرف على الأجزاء القليلة التي نعثر عليها كالخطوط والحواشي الحمراء أو الرسوم المقتضبة

المخدومة بالأظافر والأشواك. ويظهر أن بلاد المغرب عرفت في هذا العصر حتى فن صنع التماثيل الشبيه بما نجده في الصحراء إذا نحن عددنا كما فعله م.ريقاس(M. Reygase) أصنام " تابل بلات" ذات الرؤوس الآدمية في الصحراء الشرقية من العصر النيوليتي. وعلى كل فإن مساكن الحجارة الكثيرة في غربي البلاد التونسية وفي مقاطعة قسنطينة (يوجد أكثر من عشر آلاف مسكن حول "سيغوس" في الجنوب الشرقي من قسنطينة) والملاجئ المقامة على المشارف كالتي نجدها في أعلى منحدرات واد "باث" تشهد بأننا إزاء مرحلة أولى للفن المعماري (أ.ب. روهمان).

وليس هناك من شك في أن بلاد البربر تدين لمصر بأكبر قسط من هذه التغيرات. ويظهر أن المراكز الصحراوية مثل مركز عبد العظيم في الجنوب الغربي من العرق الكبير تدل على أن الصحراء كانت همزة وصل بين إفريقية الشرقية وبلاد البربر وكذلك بالنسبة لوجود (spatha nilotica) في تيديكالت (Tidikelt) إلا أنه يرجح أن الصلات بأوروبا وخاصة إسبانيا تمتنت أيضا. والتشابه بين آنية "أشاكر" الخزفية (رأس سبرتال) وبين بعض الآنية الخزيفية الإسبانية يصعب عده مجرد صدفة.

III - الصخور المنقوشة:

1 - صخور إفريقيا الشمالية المنقوشة:

خلف لنا الأفارقة الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ زيادة على آلاتهم وبقايا مآكلهم صخورا منقوشة يسميها الأهالي "الحجرات المكتوبة" وكانت هذه الحجارة موجودة بكثرة في عدة جهات من إفريقيا الشمالية مادة للأبحاث التي قام بها ج. ب. فلامون (J. B. Flamand) مدة أربعين سنة. إلا أن الاكتشافات والنشريات تعددت منذ سنة 1921 وهو تاريخ ظهور كتابه (Les pierres écrites) "الحجارة المكتوبة" الذي أصبح مرجعا مألوفا منذئذ. والمشاكل التي أثارها من حول هذه النقوش ومواضيعها وتواريخها كانت محل بحث أ. ف. فوتيه (E. F. Gautier) وهـ.بروي (H. Breuil) وم.ريقاس، وتهـ. مونود (Th. Monod) بالنسبة لجهات من الصحراء مختلة وب. قرازيوزي (P. Graziosi) ول.فروبنيوس (L. Frobenius) بالنسبة لليبيا وم. سولينياك (M. Solignac) بالنسبة لبلاد البربر الشرقية ور.فوري (R. Vaufrey) بالنسبة لجنوب وهران. وإذا كانت قائمة هذه الصخور المنقوشة لم تكتمل بعد اكتمالا كليا فإننا نجد بين أيدينا جملة وثائق كافيا لتمكيننا من بحث إجمالي.

ومنذ ظهور دراسات ج. ب.فلامان نتبين ثلاثة أنواع من النقوش: ففي الأولى -التي لا شك أنها حفرت بالصوان- خطوط عريضة عميقة منتظمة. وكان النقاشون يبدؤون برسم مواضيعهم ثم يحفرون بمنقاش نقطا متسلسلة بينة وأخيرا ينتهون إلى خط متصل واضح بعد صقل متقن بحك آلة حجرية وفوق هذه النقوش توجد نقوش ثانية أصغر حجما منقوطة غير متقنة فيها إجمال كبير ومرفوقة بكتلات أو خطوط ليبية بربرية. وهذه النقوش تمثل حيوانات تعيش إلى الآن في بلاد البربر ومن بينها ما دخل البلاد حديثا كالجمل مثلا ومن هذه النقوش نوع ثالث نمطه عصري خط في رفق ورافقته كتابات عربية هي بالطبع رسمت بعد القرن السابع المسيحي.

2 - تصوير الحيوان والإنسان:

إن النوع الأول هو الأقدم، هو الذي يدعو إلى المناقشة. فليس لنا عناصر تمكننا من ضبط عمره مثل العناصر التي استعملها هـ. بروي مثلا وجعلته ينسب نقوش فرنسا

وإسبانيا إلى الاورنياسي (l'Aurignacien) والمقدليني (Magdalenun) والسوليتري (Solutréen) معتمدا على كونها مدونة في مساكن هذه العصور المختلفة بين حيوان وأدوات معينة من حيث التاريخ. ورسوم الحيوانات في بلاد البربر لا تسمح للباحث بالوصول إلى استنتاجات مدققة شأنها في فرنسا لأن " الفونا " المغربية لم تطرأ عليها نسبيا إلا تغيرات طفيفة. وأخيرا إن مجموعة الآلات المكتشفة قرب الصخور المنقوشة لا تأتي بما يمكن الاعتماد عليه في البحث بصورة جدية تسمح بالحكم باتا. إذ هي ترجع إلى عصور مختلة وتظهر في غالب الأحيان لا علاقة لها بالنقوش.

غير أن هذه الصخور المنقوشة نجدها جنوب وهران متصلة اتصالا دائما بالعصر الحجري الحديث الموسوم بالطابع القفصي " ونستثني من ذلك كل المصنوعات الأخرى من صنف مصنوعات العصر الحجري الأعلى والوسيط والحديث" (ر. فوفري). ولو تعمقنا في البحوث لأمكن الجزم بأن الأمر ليس شاذا.

وأكثر الحيوانات الممثلة بالصور هو الجاموس القديم (bubalus antiqus) وهو حيوان ذو قرنين طويلين جدا كان يعيش في آخر عصر البالستوسان(pléistocène) ومن ذلك نستنتج ج.ب. فلامان الذي يعتقد أن انقراض هذا الحيوان صادف ظهور الصحراء وأن هذه الصخور المنقوشة من عصر نيوليتي. إلا أن حياة الجاموس تكون قد امتدت إلى عصور اقرب إلينا كما هو الشأن بالنسبة للفيل. غير أننا لا نزال نتناقش لمعرفة أي النوعين عاش في إفريقيا من عصر البالسنوسين إلى أن أتت عليه المدينة الرومانية. فهل هو الفيل الأطلسي من الجنس القديم أم هو الفيل الإفريقي الحديث. ونجد أيضا أن أيلات وأسودا وفهودا وزرافات ونعاما وكذلك حيوانات آهلة وخاصة كباشا مغطاة رؤوسها بغطاء مدور الشكل يذكرنا في شيء من الغرابة بقرص كبش عمون. غير أن تأويل هذا الشعار الذي نجده على رؤوس صور الحيوانات المجترة لا يخلو من صعوبات. ولسنا واثقين تمام الوثوق من انه رمز للشمس. أما فيما يخص أصول عبادة الكبش فإن المناقشة ما زالت مفتوحة: يتمسك البعض بأنه يوجد تقارب بين هذه العبادة وبين إله ثيبة. ويذكر "فوفري" في هذا الشأن عبارة "العبادة المتفرعة" ويؤكد آخرون أن الكبش الصحراوي المنقوش "لا يدين بشيء إلى الإله عمون الذي لم يخلق بعد" (ج. جرمانG. Germain) ويذهبون إلى أن مصر والمغرب كرعا من منبع ثقافي واحد.

و في بعض الأحيان نجد أن هذه الحيوانات مصورة جماعات جماعات ومن بين المشاهد الغريبة مشهد صراع جواميس الريشة العتيقة (جنوبي عفلو) ومشهد تمزيق الأسود وبنات آوى لخنزير وحشي بكاف مسوار(بلدية واد شرف المختلطة).

وإن لبعض الصور الآدمية قيمة أثرية عظيمة. فالأشخاص كانوا يسترون عوراتهم ويلبسون ثيابا من جلد الحيوان. وبعضهم يطوقون رؤوسهم بإكليل من الريش وهي علامة الثروة والجاه بلا منازع والبعض الآخر كان يتحلى بقلائد وأسورة وكانوا يدهنون أجسادهم بالمغرة وكانت أسلحتهم القوس والسهام والعصي القاذفة (boomerangs) والتروس.

ومن أهم الصور الآدمية من حيث قيمتها كوثائق طبعا صورة إنسان قصر الأحمر قرب"جريفيل" جنوبي مقاطعة وهران. وهو يلوح بالة يبدو أنها فأس من الحجر المصقول.

3_ضبط تواريخ الصخور المنقوشة

إذا لم ينازع أحد في أن فن النقش على الصخور ثبت طيلة قرون عديدة بعد المسيح. فإننا لا نجد نفس الإجماع عندما تسعى في ضبط تاريخ بروز مظاهره الأولى ولو على سبيل التقريب والحق أن الباحثين كثيرا ما عقدوا المشاكل عند ما سلموا بنتائج على أنها ثابتة بينما هي ليست إلا مجرد افتراضات يقتضيها البحث. نحن لم نعد نقبل اليوم النتائج التي يزعم ج.ب.فلامان أنه استخلصها من اختلاف طرق الصناعة المستعملة من طرف الناقشين على الصخور ولا التي استخلصها من كثافة الطبقة الكدرة المتفاوتة والمغشية للصخور. والتواريخ المرتكزة على المقارنات الأثرية كان مصيرها مصير هذه الحقائق المزعومة والمرتبطة بهذه التواريخ. أما الحقائق الخاصة بالحيوانات القديمة كثيرا ما أعارها الباحثون قيمة خيالية. فلا شيء يدل على أن هذا النقش أو ذاك يمثل آخر جاموس أو أول جمل. وفيما يخص الجمل بالذات الذي يكتنف تاريخه غموض كبير فإننا نتردد في الاعتقاد بأن للصور قيمة تاريخية حاسمة وما اقترحه ت.مونود بالنسبة لنقوش "ادوار أحنات" من تمييز بين الطور الذي ظهر فيه الجمل والطور الذي سبقه لم يفز برضا الجميع. ووجود الفرس الآهل هو وحده الذي يمكننا من دليل يقيني لضبط تاريخه: وهو النصف الثاني من الألف الثانية لا قبله.

و في إيجاز فالمشكل يرجع إلى معرفة هل أن أعرق الصخور المنقوشة في القدم هي سابقة للعصر النيوليتى أم لا. وبصفة عامة فإن الطبيعيين كم بول(Boule) ومولينياك ولـ. جولو (L. Joleaud) وبعض مؤرخي ما قبل التاريخ كهـ. كوهين (H. Kühn) أجابوا بنعم. ونسبوا النقوش القديمة إلى العصر الحجري الأعلى (القفصي) بينما دقق الأب بروي (H. Breuil) الأمر فاستعمل عبارة المضاف إلى العصر الحجري القديم (épipaléolothique) ومن دون أن نذهب إلى ما ذهب إليه ستيفان قزال (St. Gsell) عندما قدر تاريخ هذه

النقوش ب3000 سنة قبل المسيح فإن اغلب مؤرخي ما قبل التاريخ ك ج. ب. فلامان أوبرماير (H. Obermaïer) وبصفة أبلغ ر.فوفرى يرون أن فن النقش على الصخور معاصر للعصور النيوليتية ولقد أوردوا حججا تتفاوت قيمة لتدعيم كلتا النظريتين. ويظهر أنهم لم يصلوا إلى نتيجة بعيدة عن الخدش، لكن يمكن أن نلاحظ أن الريح تهب اليوم صوب النيوليتى.

أما المقارنات التي لم يتمالك بعضهم عن تسجيلها بين هذه النقوش ونقوش إسبانيا وخاصة إفريقيا الجنوبية ورسومها ووجوه الشبه التي لوحظت بين هذه النقوش وبين بعض مظاهر الفن الايجى أو المصري فليس لها قيمة إلا بالقدر الذي نعدل فيه عن الادعاء بأنه يمكن بواسطة المقارنات حل مشاكل لا تزال وربما ستبقى دائما غامضة.

و إن ما قبل تاريخ بلاد المغرب ينبئ بتاريخه. ذلك أنه لا مفر في كليهما من الاكتفاء في غالب الأحيان بتواريخ تقريبية. وإذا أفلتت شعوب ما قبل التاريخ من سلطان التدقيق فإنه ليس من الهين ضبط شعب التاريخ، أي البربري الذي يمثل من الوجهة الاجتماعية إن لم نقل من الوجهة الجنسية حقيقة حية قارة.

الباب الثالث

البربر

1 - مشكل الجنس

2 - أوائل التاريخ

3 - مدنية البربر

ا - مشكل الجنس:

1 - البربر:

مهما رجعنا إلى أوائل تاريخ إفريقيا الشمالية لاحظنا أن الأمور تجري كما لو أنه كتب على هذه البلاد أن تبقى قاصرة قصورا وراثيا عن التمتع باستقلالها. فلقد بقيت دائما خاضعة لمدنيات واردة من الخارج وفي بعض الأحيان اقترن مصير هذه المدنيات. فكان يجب أن نجد مبدئيا شعبا متعدد المقومات متغير الثمرات. ولكن الحقيقة غير ذلك. فسلطان الطبيعة هنا عظيم. والعبارة العربية "جزيرة المغرب" ليست من قبيل الاستعارة فحسب. بل هي تمثل هذا الميل إلى الدوام الذي تختص به الجزر. فالمدنيات المتتابعة التي طرأت من الخارج لم تكن بالنسبة إلى البربري إلا ثيابا متنوعة تستر جسدا وروحا لا يتغيران. زد على ذلك الجبال التي نمت في بلاد المغرب هذا الميل إلى المحافظة.

ومدلول المدينة البربرية عندنا هي هذه المجموعة من التقاليد والعادات والأخلاق والنظم التي وجدت خالصة أو مشوبة في كل العصور بقطع النظر عن صروف التاريخ. فهي مظاهر قارة لعقلية ثبتت أمام مشاكل سياسية أو دينية. و هي بعبارة أخرى محصول بحث سوسيولوجي لم يكتمل من سوء الحظ. وستصبح عن قريب مواصلته مستحيلة

فهذا الحد السوسيولوجي للبربري، مهما أعوزه الوضوح والدقة، هو الحد المرضي الوحيد. وهو وحده الذي يعبر عن الخصائص المشتركة للسكان الموجودين في شمال القارة الإفريقية من طرابلس إلى المحيط الأطلسي. ورغم اختلاف طرق العيش اختلافا واضحا جدا في الحاضر والماضي فإننا نلمس في كل هذه القطعة من أوروبا المشدودة إلى إفريقيا العناصر الطريفة لوحدة بشرية عظيمة.

ولا شك أن هذه الوحدة قد ظهرت قديما في ميدان اللغة. وقد لا يكون ذلك باستعمال لغة واحدة في بلاد البربر كلها، بل في أغلب الظن باستعمال لهجات متقاربة تكون مجموعتها المسماة اصطلاحيا الليبية فرعا من فروع أسرة حام. و هي مصدر اللهجات البربرية الحالية. غير أن هذه المجموعة التي هددتها لغات مدنيات أخرى تصدعت وتفرقت

كتلا مختلفة. فالعربية غزت سكان المدن والسهول ويذهب "وليام مارسي" إلى أن نسبة الناطقين بالبربرية هي اليوم 23 بالمائة في ليبيا، وواحد بالمائة في تونس، و27 بالمائة في مقاطعة قسنطينة، و34 بالمائة في مقاطعة الجزائر العاصمة، وواحد بالمائة في مقاطعة وهران. وقد تجاوزت هذه النسبة 40 بالمائة في المغرب الأقصى. لكن الأمر لا يعدو الفروق اللغوية. فليس هناك خطأ أعظم من الاعتقاد -كما فعله البعض في كثير من الأحيان- في أن التقسيم بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية يعكس تقابلا بين جنس عربي وجنس بربري. إن الأمر لا يدل إلا على أن اللهجات البربرية استقرت في جهات جبلية أصعب منالا على الغزاة بينما استسلمت في جهات أخرى إلى لغة أكثر مسايرة للضرورات الاجتماعية.

2 _ شبكة من الأجناس

ينبغي ألا نستخلص من هذه الوحدة المتأصلة للحضارة البربرية أو من المعطيات اللغوية التي نبهنا إليها سابقا وجود أساس جنسي يفسرها.

ولا شك أنه منذ أوائل عصور التاريخ استقرت ببلاد المغرب شعوب مختلفة شديد الاختلاف. وإذا نحن استثنينا الشعوب التي لم تمتزج بصفة عامة بالسكان الأصيلين أو المندمجين، مثل الأوروبيين الذين استقروا منذ ما يقرب من قرن، أو اليهود الذين أتوا في دفعات متتابعة منذ العصور القديمة، فإننا نلاحظ استيطان الساميين (الفينيقيين والعرب) والهنديين الأوربيين (اللاطين والوندال واليونان) والأتراك والزنوج. غير أن هذه العناصر المختلفة، وإن هي امتزجت بالسكان المستقرين، فقد أتت في عدد ضئيل جدا بحيث تعذر عليها تغيير المقومات الجنسية بإفريقيا الشمالية. فالوندال كانوا ثمانين ألفا وكذلك العرب المستوطنون فعددهم لم يكن كبيرا جدا. فالجيوش المرسلة من الشرق إلى إفريقيا في القرنين: السابع والثامن بلغ مجموعها 000 150 رجل تقريبا. وكما قال "وليام مارسي": يجب أن نعتبر الخسائر في الأرواح بساحات القتال مدة الغزو الطويلة والثورات البربرية. غير أنه من الواجب أن نزيد على هذه المجموعة النساء والأطفال والموظفين والتجار والمبشرين الذين كلفوا بنشر تعاليم الإسلام بين البربر، ومجموع هؤلاء جميعا لا يتجاوز مائتي ألف أو ثلاثمائة من الدخلاء على أكثر تقدير. أما فيما يخص العناصر الأخرى المستوطنة فليس لدينا أرقام ولو تقريبية. ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت كبيرة العدد. وفي الجملة لا نرى أن واحدا منها أمكن أن يكون له مفعول قوي فيما يخص واقع البلاد الجنسي، خاصة إذا نحن لم ننس أن المستوطنين كانوا يتعاقبون في الزمان، وينتشرون في المكان.

فهذه الملاحظات تدعونا إلى التفكير في أن السكان الذين يعمرون بلاد البربر اليوم -مع اعتبار بعض عمليات التوليد- هم أنفسهم الذين كانوا يعمرونها في أوائل عصور التاريخ. ولكن يكفي أن نقارن بين الميزابيين ذوي الرؤوس البيضية والقامات القصيرة واللون الأسمر والوجوه المفلطحة وبين سكان جبال القبائل ذوى الرؤوس المستطيلة والقامات القصيرة والنظرة الصافية والشعر الأشقر أو الأصهب غالبا - لندرك إلى حد اليقين أن البربر لا يكونون جنسا منسجما من حيث الانتروبولوجية. ولا شك أنه حدث خلال عصور ما قبل التاريخ اختلاط كبير بين مختلف عناصر السكان انبثقت منه النماذج الجسدية الحالية. وأنه من السابق لأوانه -وأبحاثنا الانتروبولوجية في إفريقيا الشمالية على الحالة التي عليها الآن- أن ندعي توضيح خفايا الامتزاجات الواقعة في العصر النيوليتي وما قبله توضيحا كاملا. غير أن أبحاثا حديثة تسمح لنا بالاعتقاد أن البربري يستمد أصوله من عنصرين أساسيين: إنسان مشتى العربي وإنسان ما قبل المتوسطي (préméditerranéen). ومهما يكن الأمر فإن ملاحظات أغلبها قديمة ومستمدة من البربر الحاليين تبين تنوعهم الانتروبولوجي.

3_ تصنيف برتولون(Bertholon) وشانتر (Chantre)

بعد أن قام برتولون وشانتر ب 532 1 ملاحظة في قيس الأوادم انتهيا سنة 1913 إلى تقسيم سكان بلاد البربر الشرقية إلى ثلاثة أصناف:

صنف1: وهو قصير القامة مستطيل الرأس، متوسط الأنف، اسود الشعر، بشرته فيها صدأة وصبغها أحمر يضرب إلى السمرة وهو صنف الأس (Ellez) ضبطه كولينيون (Collignon).

صنف2: وهو قصير القامة بيضي الرأس، دقيق الأنف طويله، أسود الشعر في عينيه دكنه، وفي بشرته صدأة صبغها ضارب إلى الصفرة. وهو صنف جربة ضبطه كولينيون.

صنف3: وهو طويل القامة، مستطيل الرأس، دقيق الأنف طويله، له، إذا كان أصيلا، شعر أشقر وعينان زرقاوان وبشرة بيضاء وردية اللون. ولكن هذا الصنف قد داخله التوليد وتفرع عنه نوعان آخران.

صنف3 - أ -: له خصائص صنف 3 ولكنه بيضي الرأس.

صنف3 - ب-: مولد من أصل زنجي، أنفه منتشر وبشرته أكثر دكنة، وهو صنف الواحات. ضبطه كولينيون.

والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة القصيرة له صلات بالجنس المتوسطي، والصنف ذو الرأس البيضي له علاقة بأصناف آسيا الصغرى الشبيهة به (أكراد)، وخاصة فرنسا (دردونيا). والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة الطويلة له صلات بالجنس الأوربي المعبر عنه بالشمالي.

و فضل الدكتور " لوبلان" (Leblanc)، على البحث الذي أجراه "برتولون" و"شانتر" حول مجموع السكان، القيام ببحث مسبق منتظم للصنف أو الأصناف الغالبة التي يعتمد عليها علم قيس الأوادم. ولا يرى مانعا من الانتفاع بالدراسة التي تعتمد على التشريح الخارجي، والتي لم يهتم بها من سبقه.

وهو يطعن في قائمة الأسماء التي ضبطاها. ويطعن في تعديدهما لأصناف شتى لا تعطى أي تدقيق فيما يخص إمكانية وجود البربري: فصنف 1 هو توليد من أصل زنجي قديم وصنف 2 يضم الميزابيين الذين ينكر عليهم نسبتهم إلى البربر وصنف -3 أ- نتيجة توليد يرتكز ولا شك على الصنف العربي وصنف -3 ب- مولد من أصل زنجي.

4_ البحث عن الأصناف الغالبة:

إن أحسن طريقة للدرس قد تكون تلك التي تدعو، كما أوصى بذلك "توبينار" (Topinard) إلى البحث عن الأصناف الغالبة في جهة ما. ولذا -يحسن- كما اقترح الدكتور "لوبلان" -الاقتصار على بعض الأصناف في جهة ما لمقارنتها بأصناف اختيرت بنفس الطريقة في جهة أخرى. ففي المجموعة الأولى المضبوطة على هذا النحو ندرس من جديد شكلها الظاهري الغالب لنقارنه بدوره بشكل ظاهري معين بنفس الطريقة في مجموعات أبعد جغرافيا. فهذه هي طريقة تعتمد على ضبط الأصناف من الناحية التشريحية قبل قيس نماذجها خلافا للطريقة الأخرى التي تبدأ بالقيس قبل ضبط الأصناف.

وبهذه الطريقة أمكن للدكتور "لوبلان" عزل طرقي في الحجاز (Hoggar) محدد تمام التحديد بخصائص شتى ومقابل لنسبة كبيرة لمجموعة من السكان محدودة العدد. وهو يظن أنه يوجد في بلاد القبائل نوع من الأجساد واضح المعالم ولو أنه أقل دقة مما نجد عليه الطوارق. غير انه وإن تشابه الصنفان في طول القامة واستطالة الرأس ودقة الأنف وطوله، فإنهما يختلفان في كل الخصائص الأخرى. ويظهر أن الآمر بالمثل بالنسبة للشاوية وسكان الريف وبني خمير. وما نعرفه عن بربر المغرب الأقصى يمكننا

من ضبط صنفين: صنف الشمال الشبيه بالقبائلي، وصنف الوسط والجنوب القريب من " الطوارق".

وهذا البحث في الأصناف الغالبة ما زال في بدايته وسيكون ثمرة المستقبل، إذ أن مقارنة هذه الأصناف من حيث الشكل الظاهري هي وحدها التي ستسمح بإقامة تصنيف علمي. وفي الوقت الحاضر يكون من الصلف أن نقوم بعمل آخر غير تضمين النتائج الحاصلة التي تدل على تجزؤ بلاد البربر من حيث أجناسها. إلا أنه - ما إن تسير لنا معرفة البربري الذي يمكن تسميته بحق: المغربي -حتى يبدو صنفا اجتماعيا له خصائصه الواضحة. وبقدر حرصنا على طرافة البربري نتمكن من إبراز ضرب من الوحدة لتاريخ بلاد البربر.

II - أوائل التاريخ:

1 - الأساطير:

منذ العهد النيوليتي الذي فيه استكملت النماذج الانتروبولوجية الحالية استقرارها إلى عهد توغل الرومان في البلاد لم يصطدم التاريخ بالبربر إلا عرضا وذلك عند اتصالهم بالشعوب الأخرى.

وشهرة ما رواه أفلاطون في كتابه الطيماوس (Le Timée) معروفة. فمملكة جزيرة الاطلنطيس(Atlantis) تكون حسب هذه الرواية بسطت نفوذها على ليبيا وحاولت غزو مصر وبلاد اليونان. ولكن المياه غمرتها في آخر الأمر. وهل نحن في حاجة إلى ذكر هذه القصة الفلسفية التي أثارت الكثير من التعاليق الغربية بالرغم عن أنها أشد اتصالا بميدان علم الأمراض العقلية كما قال أ - البرتني (E. Albertini).

وتوغل الفرس والميديين (Les Médes) والأرمن في إفريقيا بعد موت هرقليس ليس إلا أسطورة رواها سالوسطس (Salluste) لا نصيب لها من الصحة.

أما ما رواه " بروكوب" (Procope) عن غزو العبرانيين لليبيا -مما نجد له صدى في مؤلفات العرب- فيبدو أنه صادر عن بيئة يهودية متأثرة باليونان وليس له أية قيمة تاريخية.

2 - دخول الليبيين لمصر:

وخلافا لما سبق ذكره فإنه من اليقيني أن وادي النيل كان مسرحا لهجومات الليبيين في الفترات المضطربة وابتداء من أسرة الملوك التينيين الأولى (حوالي 3300 سنة قبل المسيح) سجلت الوثائق كلوحة "نارمير" انتصارات فرعون على الليبيين فهم الذين تسميهم النصوص التهينو(Tehenou) وهم الذين تظهرهم الصور المشخصة متسلحين بالسهام والعصي القاذفة (boomerang) والآلهة نايت (Neit) تسمى "الليبية" في الأنشودتين الرابعة والخامسة ويستحق فرعون الثناء عندما يأخذ التاج الأبيض العظيم من أيدي هؤلاء الأجانب العظام الذين يحكمون الليبيين بهذا قد تكون وجدت مملكة مصرية - ليبية في المغرب.

وتحمل الآثار صورا تمثل المعارك التي شنها على الليبيين ملوك الأسرة الخامسة بمنف للقضاء على الاضطرابات التي سبقت توليهم الحكم. وذلك حوالي سنة 2600. وقد كانت هذه المعارك حاسمة إذ يبدو أن الليبيين لم يهددوا مصر حتى آخر الإمبراطورية الوسطى. وبعدما صد رمسيس الثاني أحد هجوماتهم جندهم لمواجهة خطر الحثيين (أوائل القرن الثالث عشر) ووجدهم ابنه منوفتاح (Ménephtah) ضمن اتحاد شعوب البحر العظيم وهو رد فعل ضد التوسع الهندي الأوروبي - وقد تحالف اللوبيون أو الليبيون مع قراصنة الشمال الليسيين وسردان ساده أهل سغلوس (Sagalos) وترسين أهل لمنوس والأخائيين فكانوا أغلبية الجيش الذي هاجم الدلتا بدون نتيجة (1227). وقد يكون أصل هؤلاء اللوبيين من الأطلس فقد لوحظ أن أسمائهم وأسماء قوادهم تذكر بالضبط أسماء النوميديين الوارد ذكرهم في التاريخ المألوف (A. Moret). ومهما يكن من أمر فهم الذين أطلق اسمهم على ليبيا ولعبوا في تاريخ مصر، فيما بعد، دورا رئيسيا متزعمين كتلة غير منسجمة من التهانو (Tehenou) والهنديين الأوروبيين. وفي آخر الأمر اضطر رمسيس الثالث حوالي سنة 1189 ق م رغم انتصاره عليهم غرب "منف" أن ينزلهم في "عشرات الآلاف" بالدلتا حيث سخروا من مراقبته.

واستغل أحد القواد الليبيين المرتزقة الفوضى التي تبعت ذلك فبسط نفوذه على هرقلة(Hierakléopolis) في مصر الوسطى (Moyenne Egypte). وغزا خليفته السابع شيشونق الأول (Sheshonq) الدلتا وقسم الأرض بين الليبيين. وأسس الأسرة الثانية والعشرين (950) ق م. ويصور لنا الفن الشعبي الأول مرة مجتمعا شغوفا بالمعارك مخالفا تمام المخالفة للمجتمع المصري. وخلافا لما اعتقد المؤرخون طويلا فإن أحفاد رسل الإله أمون القدامى ليسوا هم الذين أسسوا مملكة نباظه (Napata) التي اتسعت رقعتها في أواخر القرن الثامن من الشلال الأول إلى الحبشة. وأثبتت حفريات رينا (Reisner) أن الليبيين هم الذين بسطوا نفوذهم على أرض "الكوش" كما فعل ليبيو الشمال بالنسبة للدلتا. لقد كانوا فرسانا متحمسين لجيادهم لا سائقي عربات كالفراعنة. ولم يوجد أطوع لتعاليم أمون وكهنته من هؤلاء الأجانب المستوطنين بمصر. ولاشك أن المدينة المصرية أشعت بواسطتهم على الليبيين الغربيين وربما بلغت أنوارها المترامية أقصى غرب إفريقيا.

3 - العلاقات مع العالم الإيجي والفينيقي واليوناني:

إن معلوماتنا حول علاقات الليبيين مع العالم الإيجي أقل من معلوماتنا حول علاقات الليبيين مع مصر. ويعتبر أ.ايفانس(A. Evans) أن اتصال الليبيين بالعالم الإيجي

غير مستبعد. وتروي إحدى الأساطير أن كوروبيوس الإقريطي قذفت به العاصفة إلى ساحل ليبيا فرجع إلى جزيرته ربانا. وكان أسطول مينوس (Minos) يتزود في ليبيا من القريني(Cyrénaïque) بلا شك بنبات السلفيون (Silphion) الذي كان يجني لطيب رائحته ومنافعه الطبية. ولا بد أن إمبراطورية البحار الإقريطية أدت إلى تأسيس مراكز تجارية على الساحل الإفريقي منها تكون مدينة مينوس (minoenne) قد أشعت؛ ودليل ذلك قد نجده في الرسم الذي أزدان به أحد جوانب قبر محفور في صخرة قائمة (حانوت جمع حوانيت) في جهة مقنة (بين باجة وطبرقة بالشمال التونسي). ويستدل سولينياك على وجود علاقات بين الشمال الشرقي لبلاد البربر و"ايجه" قبل مجيء الفينيقيين بمشهد بحري غرضه الأساسي مركب عديم الارتفاع على سطح الماء (bas sur l'eau) له صار مركزي وشراع شكله شبه منحرف كما يستدل أيضا بأشخاص هذا المشهد. ولعل هذه العلاقات هي التي تلقي الأضواء على تأسيس مدينة مشالة (Meschela) التي ينسبها ديودرس الصقلي إلى اليونان عند عودتهم من طروادة وعلى كيفية حفر الحوانيت. إلا أن "أ. بوتيا" يبدي تحفظات إزاء هذه النظرية. ويكتفي " كلوتز" بالاعتراف بأن الصور المرسومة على جدران الحوانيت تشبه صورا أخرى اكتشفت في دلف (Delphes) كما يكتفي " قزيل" (St. Gsell) في حذره المعتاد بأن يؤكد أنها ليست فينيقية ولا رومانية.

أما المؤثرات الإيجية التي قد تشهد بها الآنية الخزفية البربرية الحالية، فإنها لا تزال مجرد احتمالات بالنسبة للمستوى الحالي لمعارفنا.

وقد ظهر التأثير الفينيقي الثاني منذ القرن الثاني عشر وأصبحت له خطورته في قرطاج التي سيطرت طيلة ألف سنة على تاريخ بلاد المغرب. ودراسة هذا التأثير تتصل بتاريخ العاصمة البونيقية.

وتروي نصوص عديدة، لا نطمئن تماما إلى صحتها، قدوم أبطال اليونانيين الذين خاضوا حرب طروادة إلى ليبيا. ويجب أن نعير رحلاتهم قيمة أكثر من رحلات برسي (Persée) وهرقل والارغنوط. فالاستعمار اليوناني لم يتصل أبدا مباشرة ببلاد البربر. ولم يستقر الدوريطانيون على نجد بلاد القريني (Cyrénaïque) إلا حوالي سنة 631. وكانت لهم مع الليبيين معارك عنيفة متكررة. ولكنهم اختلطوا بهم اختلاطا وثيقا وتبنوا تقاليدهم الجنائزية وعقائدهم وسعوا إلى التزوج بالجميلات من نسائهم. ولئن هم أسسوا مدينة برقة في أواخر القرن السادس، فقد اصطدموا بقرطاج عندما كرروا محاولاتهم التوسعية. ولم يسمح البونيقيون كذلك باستقرار دوريوس أصيل سبرتا

بين سبرتا الصغرى وسبرتا الكبرى. وفرضوا في آخر القرن السادس بعد ذلك على اليونان أن لا يتجاوزوا معابد "الفيلان" حتى لا يتوغلوا في سبرتا الكبرى (مختار) (Mouktar). ولا شك أنهم حجروا عليهم في القرن السادس كما حجروا على الرومان كل تجارة مباشرة مع بلاد البربر -وإذن فإن البربر لم يعرفوا الفن المعماري والصناعة والعبادات اليونانية إلا بواسطة الفينيقيين. ولم يتيسر للممالك البربرية أن تتاجر مع اليونان بحرية إلا بعد سقوط قرطاج. وعند ذلك أمكن لبعضهم أن يعيشوا في العواصم البربرية وأن ينشروا مدنيتهم في بلاطات الأمراء.

III - مدينة البربر:

1 - طريقة المقارنة:

وعندما ندرس أحوال البربر معتمدين على المراجع القليلة الموجودة نباغت باستمرار عاداتهم خلال العصور. فالكثير من مظاهر حياتهم الاجتماعية الحالية خصوصا الدينية منها تمتد جذورها إلى ماض سحيق ربما يرجع إلى ما قبل التاريخ. ولذلك نسمح لأنفسنا بالاعتماد على ملاحظات حديثة لتعويض الحلقات المفردة من الوثائق أو ربط أحداث واقعة خلال مختلف العصور تظل غامضة من دون شك. إنها طريقة دقيقة تشكو داء ليس له دواء، ألا وهو انعدام التواريخ. ولذلك يحتاج كل من اعتمد عليها إلى الحذر الشديد وإلى إحاطة بالمعارف لا يتسرب إليها الشك. ورغم ذلك فإن النتائج بصفة عامة لا تتجاوز الحقائق التقريبية والفرضيات. وبما أنه لا يمكن استعمال طريقة أحسن منها فإنها إذا استعملت بمهارة تعطي نتائج مدهشة في بعض الأحيان. فالمقارنة التي قام بها "أ. ف.ڤوتيه" بين الكاهنة وأحد قواد بني زيان أثناء الحروب الأخيرة بالمغرب الأقصى -إذ يأمر كلاهما ابنه بالاستسلام للعدو الذي كان عربيا بالأمس وفرنسا اليوم -تلقي الأضواء على جانب من جوانب العقلية القبلية. وقد اعتمد عليها "ستيفان قزال" اعتمادا كليا، فألف كتابين في نظام البربر الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وفي حياتهم المادية والفكرية والأخلاقية، وفيهما من غزارة المعلومات والطرافة ما يدعوا إلى الأخذ منها بلا احتراز.

2 - صيادون ومربو مواش:

لم تتغير عادات البربر طيلة العصور تغيرا محسوسا. لقد كانوا في أول أمرهم صيادين تقض مضاجعهم الوحوش الضارية. واستمر بعد ذلك يبحثون عن هذه الحيوانات توفيرا لأمنهم وسدا لحاجات ملاهيهم. ولما عرفوا الفلاحة ظلوا -رغم ذلك- يربون البقر والجياد والغنم والضأن، إما مقيمين في أماكن قارة بجهات آمنة أو منتقلين من مراعي السهول شتاء إلى مراعي جبال التل صيفا أو منتجعين السباسب إلى أن يضطرهم الجفاف إلى اقتحام مروج التل ولو بالقوة. وسنرى أن الفلاحة لم تسجل تقدما محسوسا إلا في القرن الثاني قبل المسيح بفضل مسينسا العاهل البربري العظيم.

ولقد حافظت قبائل الرعاة على ملكية الأرض الجماعية. ولا بد أن وجدت شيوعية في الميدان الفلاحي تتمثل إما في قسمة ثمرة عمل الجميع بين أفراد المجموعة أو في توزيع الأرض بين العائلات بصفة وقتية. ولا نعرف بالضبط الظروف التي تكونت فيها الملكية الخاصة التي يلاحظ وجودها في عهد ملوك البربر.

ولم تضمحل سكنى الكهوف مع اضمحلال عصور ما قبل التاريخ بل بقيت في بعض الجهات إلى أيامنا هذه. غير أن الكهوف (افري)، بحكم استقرارها، لا تلائم مربي الحيوانات الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بمواشيهم. ولهذا فهم يقبلون على المنازل المتنقلة وهي نوع من الأجهزة يمكن فكها جزءا جزءا تغطى بالحصر. ونجد شبيها لها في بعض جهات الصحراء. وهي تشترك بدون شك مع بعض المنازل البسيطة الأخرى في اسم مباليا (Mapalia) أما الحضر فإنهم يسكنون إما في أخصاص من فروع الشجر تميل إلى الطول، أوفي أكواخ مربعة من حجر أو طين جاف.

ولقد أنشأ البربر لحماية ثرواتهم من النهب ملاجئ، وهي نوع من القصور أو القلاع يحرسها رجال مسلحون، أو هي في بعض الأحيان أبراج فيها يقيم سيدهم منزله بمكان وعر ويودع كنوزه ويشيد أهراءه. وكانوا يتجمعون في قرى تتكون من تكاثف الأكواخ في أماكن لائقة صالحة أعدها القوم. وهذه القرى والأحياء التي اعترضت طريق الرومان والتي يعدونها بالمئات سميت عندهم كستلا (Castella). ولم توجد المدن إلا من وقت استعمار الفينيقيين. ولقد سميت باللاتينية أوبيدا (Oppida).

3 - طعامهم ولباسهم وأسلحتهم:

اشتهر البربر في كل العصور بقوة بنيتهم وطول أعمارهم. والواقع أن الذين لا يزالون إلى اليوم يثبتون إزاء هذا التبذير المريع للأنفس البشرية هم من طينة ممتازة. إنهم كانوا قنوعين ونباتيين في غالب الأحيان. وقد كان الفلاحون يأكلون الكسكسي منذ ذلك العهد ومربو المواشي قليلا ما كانوا يذبحون حيواناتهم بل يكتفون بلبن المعز. وكانوا يؤثرون الصيد والحلزون، والعسل ولا يشربون إلا الماء.

وكان البربر القدماء يسيرون حاسري الرؤوس قد أسبلوا شعورهم على آذانهم ونضدوها لولبية الشكل متوازية أو أبقوا خصلة منها زاهية في أمهات رؤوسهم المحلوقة، وكانت لهم دائما اللحى الملسنة.

وبعد أن كانوا يكتفون بستر عوراتهم أو يتزرون بإزار -إذا هم لم يعيشوا عراة تماما- اتخذوا لأنفسهم جلود الحيوانات وقاية من البرد ثم استعملوا عباءات من الصوف

شبيهة "بالكردون" ومعطفا شبيها بالبرنس. وظلوا دهرا طويلا يضعون على رؤوسهم إكليلا من الريش يظهر اليوم في الصخور المنقوشة.

وبعد حجرات ما قبل التاريخ التي بقيت مستعملة طويلا أصبح الدبوس سلاحهم المفضل وربما العصا القاذفة (boomerang). ثم بعد ذلك استعاضوا عن السيف بالقوس وخاصة الحربة اللذين كانوا يقاتلون بهما. وقد شدوا إلى أيديهم سكينا لذبح أعدائهم وإذا هم اضطروا إلى سلاح دفاعي احتموا بترس خفيف من جلد الفيل يصير غير صالح للاستعمال إن بلله المطر.

4 - الحلي والفن:

كان إنسان ما قبل التاريخ يعطي لحجارته المنحوتة اللوزية (amandes) وأدواته المذنبة وفؤوسه المصقولة أشكالا متناسبة منسجمة. فكان يصور بأظافره، ثم بآلات حادة من الصوان والعظام نقطا متتابعة وخطوطا منكسرة وخطوطا منحرفة عديدة. وكان يزخرف بيض النعام ويصنع الدرر والأقراط ويزركش الصخور بنقوش عديدة كما رأيناه سابقا.

وكان البربر يتزينون بالحلي نساء ورجالا. فالرجال يضعون أقراطا في آذانهم والنساء خلاخل في أرجلهن، وكان جميعهم يحملون أسورة وقلائد.

ولم يعرفوا رغد العيش في البيت إذ كانوا على الأرض أو على المصاطب المبنية، ولم يكن لهم من المتاع إلا آنية من الفخار زينتها الهندسية موجودة إلى يومنا هذا في آنية الخزف ببلاد القبائل.

والبربر شأنهم شأن الأمم البدائية كانوا يعتبرون الفن ظاهرة اعتيادية للحياة لا متعة للنخبة. وكانوا لا يزخرفون إلا الأثاث المستعمل عادة اللهم إلا الحلي التصل أصلها القديم بالسحر. والمرأة فنانة أكثر من الرجل في غالب الأحيان فهي التي تزخرف آنية الخزف أو تنسج الزرابي.

ولا يستمد الفن البربري نماذجه من الطبيعة، بل هو يتعلق بالزينة ذات الأشكال الهندسية ولا يستعمل الخطوط المنحنية إلا نادرا وبدون براعة إلا أنه غير عاجز عن التقليد، إذ هو يصنع دمى للسحر صورها بشرية خالصة. وهذا الفن الهندسي الرتيب في الظاهر والذي ربما يحمل في طياته ما يعبر عن مختلف مراحل تطور ما يرجع إلى عصور قديمة جدا. ويتصف بحيوية ممتازة إذ هو صمد في وجه مظاهر الفن الأخرى

وخاصة عند اتصاله بالفن الإسباني الموريسكي. وبقيت النون كالأدوات هي هي لم تتغير. ولعل النساء هن اللاتي حافظن على تقاليد الفن المنزلي العريقة التي لم تأت عليها الاضطرابات والغزوات.

5 - اللغة الليبية:

كان البربر يتكلمون لهجات ليبية من المحتمل أن يكون أصلها البعيد هو أصل اللغات السامية. واللغة كانت ولا تزال عندهم أداة مشافهة وقد قال باسي "ولا نعلم البتة أن البربر أقاموا مدينة تعتمد على الكتابة أداتها لغتهم" غير أنهم كانوا يحذقون كتابة بقي أصلها مجهولا وربما كانت فينيقية احتفظ علم الخطوط بآثارها (واكتشفت حتى الآن 1125 كتابة وتؤكد حروف شبيهة بحروف خط الطوارق الحالي (التيفيناغ) قرابة بين حروف اللغتين. غير أنه تعذر إلى حد الآن قراءة الخطوط الليبية بالرغم من أنه يوجد لدينا ما يماثل عشرين منها في البونيقية واللاطينية. وكتابة الوحيدة المؤرخة جاءت في لغتين وتوجد في توقة (دقة في العهد الروماني) وتوافق السنة العاشرة من حكم ميسبسا (139 قبل المسيح) ولا يمكن الجزم بأنه توجد شواهد أقدم للكتابة البربرية.

6 - الدين:

كان الأفارقة يعبدون الجماد والحيوان. ولكنه من الصعب في غالب الأحيان أن نميز بين ما ابتكروه من الطقوس وبين ما ورد عليهم من الخارج. وخاصة من مصر أثناء العصور النيوليتية بالخصوص. إن الجن الذي كان معششا في العقلية المغربية أولد آلهة محلية لم يزل البربر يعبدونها حتى العهد الروماني. ثم استعاروا فيما بعد آلهة مصر وقرطاج وروما أو استعاضوا بها عن آلهتهم. وكان لهم في القرن الأول قبل المسيح آلهة تحميهم تسمى "أفريكا" رأسها مغطى بجلد الفيل. وكانوا يتعبدون بالخصوص في المغارات أو في الأماكن العالية أو بالقرب من العيون والأشجار المقدسة بدون أن يحتاجوا إلى تماثيل أو معابد أو كهنة. وعلاوة على المواكب القديمة التي يتعاطون فيها السحر فإنهم عمدوا إلى التضحية والعرافة المعتمدة على النوم فوق القبور (L'incubation) وإلى تنبؤات النساء.

7 - دفن الأموات:

ترك الأفارقة الكهوف الطبيعية المستعملة في عصور ما قبل التاريخ. وحفروا في الصخور قبورا مربعة مدخلها عمودي شبيهة بالمساكن. وتسمى الحوانيت. محدودة

المساحة عادة. وفيها يضعون موتاهم. ويعتقد سولينياك كما رأينا أن كيفية تنظيم الحوانيت خاضعة إلى التأثير الإيجي. ويرجع أمر هذه الحوانيت إلى العصور البعيدة. وربما سبقت الألف الأولى قبل المسيح كما يرى ذلك ستيفان قزال.

وبعد أن كانوا في عصور ما قبل التاريخ يودعون موتاهم الخيام في الهواء الطلق أصبحوا يدفنونهم بعيدا عن الأماكن المسكونة تحت رجام مخروطة الشكل من الحجارة كلها. أو نصفها من حجارة ونصفها من تراب. وتسمى بازينة. وهي رموس بربرية صرف يبلغ حجم بعضها 150 م. . وفيها تخبأ العظام عادة في صندوق مكون من صفائح. ويدفنونها تحت مصاطب أغلبيتها مكونة من صفيحة واحدة. وغالبا ما تغطى كلها أو قسم منها برجام مخروطة الشكل. ويودعونهم أيضا " شوشات" وهي قبور اسطوانية الشكل متفرعة عن المصاطب. وهذه القبور المبينة من مدر. وخاصة المصاطب. لا بد أنها تنتسب إلى نماذج قديمة جدا ولا شك أنها من عصر نيوليتي. غير أن هذه الشعائر نفسها تواصلت قرونا عديدة وخضعت إلى تطور محتوم كما تدل على ذلك المقارنة بين المقابر التي اكتشفها الدكتور روفو (Roffo) في واد ورك (جنوب مقاطعة الجزائر). وفي عين حمارة (جنوب وادي جلال). ويغلب على الظن أن مقابر واد ورك سبقت ميلاد المسيح. أما الأخرى فقد تكون معاصرة للقرن الثالث أو الرابع بعد المسيح.

وكانوا في غالب الأحيان يدفنون أمواتا كثيرين في القبر الواحد بعد أن يطووهم أو يجردوهم من لحومهم ويخلطوا عظامهم. ورغم المؤثرات الخارجية فإنهم لم يكونوا يدفنون الميت ممددا إلا نادرا. ولكنهم قلدوا القرطاجيين واليونان فحرقوا في بعض الحالات الاستثنائية بعض موتاهم ابتداء من القرن الثالث قبل المسيح.

وعادة تلوين الميت بالمغرة امتدت من عصور ما قبل التاريخ إلى القرن الثاني. وكانوا يضعون بجانب الميت أثاثا متواضعا وحليا. وآنية بلورية وخاصة خزفية إن أمكن ذلك.

واتجاه القبور صوب الشرق والصحون المملوءة زادا والمتروكة على ذمة الجثث وكذلك أحواض الاغتسال التابعة للمصاطب (rigoles à libations des dolmens) فإنها تشير كلها إلى إيمانهم باليوم الآخر أما طي الأجسام وخلط العظام فربما يترجم عن فزعهم من رجوع الموتى.

8 - العائلة الأغنية (La famille agnatique)

إن كثرة الأدوات والأسلحة وأصداف الحلزون في مراكز عصور ما قبل التاريخ تدل على

أنه كان للأفارقة حياة اجتماعية منذ أقدم العصور. والخلية الأصلية في المجتمع البربري هي العائلة "الأغنية" وهي العائلة التي تقوم على ذكور من سلالة واحدة.

وتعدد الزوجات هو الذي يعلل كثرة الولادات الخارقة للعادة. وما قيل من أن النساء كن مشاعات بينهم إنما هو أسطورة ربما استمدت وجودها مما كان يتمتع به مالك لقبيلة شرقية الموطن من حق افتراع الأبكار ليلة عرسهن. ومن عادة البغاء المقدس. وقد أطنب " فرازر" في إقامة الدليل على أن مثل هذه العادات لا يمكن اعتبارها مجونا بل ضربا من السحر المحبب إلى النفوس. ذلك أن البدائيين يعتقدون أن قران الأزواج جسديا يجب أن يتم حسب طقوس مضبوطة لضمان خصوبة الأرض والبشر والحيوان.

ولكبير القوم سلطة مطلقة على كافة أفراد العائلة " الأغنية" ولكل أب نفوذه على أفراد عائلته هو. فيخص نساءه بالأشغال الحقيرة. ويبيع بناته إلى من يقدم له أغلى الأثمان. ويزوج أبناءه بمن يشاء ويبقيهم تحت نفوذه. فإذا مات الشيخ لا يرث النفوذ أكبر أبنائه سنا بل يرثه أكبر أفراد العائلة كلها. وهذا النظام يسمى اليوم تانستري (من الارلاندية تانيز بمعنى الثاني) ونجده متبعا عند ملوك الوندال والبايات في تونس.

9 - جمهوريات القرى والقبائل:

إن ضرورات الحياة الراعوية والفلاحية حتمت نشوء مجموعات أوسع وأقوى من العائلة "الأغنية". فأهل النجعة يتحدون للحفاظ على الأراضي التي يمرون منها. وأهل الحضر المتعاطون للفلاحة يشيدون القرى لصد هجومات أعدائهم الألداء وهم البدو. وقد أصبحت هذه القرى جمهوريات صغيرة خاضعة لسلطة مجلس الشيوخ (assemblée gérontocratique) هو نموذج الجماعة في بلاد القبائل يدير الشؤون المشتركة ويعاقب المتمردين حسب قوانين عرفية (القانون في بلاد القبائل. والأزرف في المغرب الأقصى).

ومن فوق العائلات "الأغنية" ومجموعات العائلات الراعوية وجمهوريات القرى توجد القبائل التي هي عبارة عن دول صغيرة وحدت صفوفها للدفاع والهجوم (ستيفان قزال). وتحتفظ مجموعات العائلات "الأغنية" باستقلالها حتى ضمن القبيلة وتوفد نوابا عنها لمجلس مشترك. ولكن عندما تضطرم الحرب تختار القبيلة قائدا يسعى إذا هو نجح في مهمته إلى الانفراد بالحكم وجعله وراثيا.

والقبائل تنهار أو تنتصر وتنتشر أو تنكمش كما تشاء صدف الحرب. وكثيرا ما تأكل أجزاء القبيلة بعضها بعضا نتيجة لقيام شيع وأحزاب متنازعة داخلها. وهي الصفوف (المفرد الصف. وهو اللف بالمغرب الأقصى) وتتحد أحزاب بعض القبائل مع أحزاب قبائل

أخرى قد تكون لا تعرف الاستقرار. ولا نزال نجهل كل شيء تقريبا عن توزع القبائل جغرافيا قبل الاحتلال الروماني.

10 - اتحاد القبائل والاغليد:

قد يجمع بعض القواد قبائل عديدة تحت سلطانه بماله من هيبة أو عن طريق القسر والغلبة أو أصبح اغليدا لها أو كما يقال ملكا عليها. والغالب على الظن أن الممالك البربرية تكونت على هذا النحو قبل الدول التي يرتبط تاريخها بتاريخ قرطاج ورومة. واتحادات القبائل أقل استقرار من القبيلة نفسها. فالملك يفرض من دون شك سلطته على بلاد المخزن التي تشتمل على سكان المدن والحضر المقيمين في السهول وتمتد أو تضيق بحسب سلطانه. أما بلاد الصبا المشتملة على سكان الجبال وقسم من البدو فكثيرا ما تفلت من قبضته. وفي غالب الأحيان تتخلى عنه بعض القبائل وحتى القبيلة التي ينتسب إليها بعد أن أنهكتها الحروب التي تحملت العبء الأكبر منها أو أضنتها اللذات التي أتاحتها لها ثرواتها فتدفع بموته ثمن انتصارها.

إن سلطان الملك على قدر هيبته. فهو يستعين في ممارسة الحكم لا بموظفين رسميين بل بأقاربه أو خدمه. ويستشير وجوبا رؤساء القبائل الذين يقام لآرائهم وزن يتناسب مع عدد رعاياهم. فإذا ما غضبت عليه القبائل شقت عصا الطاعة في وجهه وقلته. ولذا فإن سياسته كانت ترمي دائما إلى تفريق صفوف المعارضين.

إن الملك وقبل كل شيء قائد تنضوي تحت لوائه بصفة مستمرة جيوش تمده بها قبيلته وخاصة الفرسان. وفي الأوقات العصيبة يجند عدد من "القوم" من القبائل الأخرى. وهم جنود من الطراز الأول. ولكن سلاحهم ناقص. وخضوعهم للنظام مرتبط بتقديرهم الشخصي للمنافع التي تنجر عن المعركة التي زج بهم فيها ملكهم.

والمشكلة المالية هي أكثر المشاكل استعصاء عن الحل. فالسلط المحلية تستخلص لا محالة الأداءات على المحصول الفلاحي وعلى الماشية عرضا في القبائل والقرى. وعينا في المدن. ولكن الملك كثيرا ما كان يكتفي بالهدايا التي تقدمها عن طواعية القبائل المنيعة. أو يجبي الضرائب بواسطة "الحركة" التي تعمد في نفس الوقت إلى نهب الجهات المترددة. ولا توجد أي مساواة في توزيع الضرائب.

إن الكثير من المؤسسات والعادات الإفريقية كان يوجد ما يماثلها في بلدان أخرى من البحر المتوسط. ولكن بعض البلدان مثل "غوليا" سرعان ما غيرتها بإضافة عناصر

خارجية إلى تراثها الذاتي. أما بلاد المغرب فقد بقيت هي هي غيورة على شخصيتها. وخضعت إلى السيطرة المادية لشعوب أجنبية من دون أن تتأثر بروحها. ورغم ذلك فإن تأثير قرطاج التي اتصل بها بعض البرابرة في أول الأمر فقط طبع مظاهر تفكيرهم وعاداتهم بطابع لم يمح حتى بعد سقوطها.

الباب الرابع

قرطاج

1 - التوسع القرطاجي

2 - الحروب البونيقية

3 - المدنية القرطاجية

الباب الرابع

قرطاج

1 - التوسع القرطاجي

2 - الحروب البونيقية

3 - المدنية القرطاجية

أ- التوسع القرطاجي:

1 - الفينيقيون في بلاد البربر:

إن الاستعمار الفينيقي الذي دخلت بلاد البربر بفضله في التاريخ لا نعرف من طوره الأول إلا ما تفيدنا به روايات مشكوك في صحتها. وإذا اعتمدنا بعضها فإن أهل صور (Tyriens) يكونون قد أسسوا مراكز تجارية على السواحل الإفريقية منذ القرن الثاني عشر قبل المسيح نذكر منها أوتيكة على الساحل الغربي من خليج تونس وذلك سنة 1101 كما نذكر لوكسيس (Lixus) الشبيهة بقادس في نفس الفترة وعلى الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى. ويقال: إنها تأسست سنة 1110. إلا أن ما يثير الاستغراب على ما يبدو، هو أن يؤسس الفينيقيون هذه المراكز البعيدة قبل أن يضمنوا الأساكل التي تسيطر على مدى نشاط ملاحتهم كل ثلاثين كلم تقريبا. ولعل المصادر القديمة المتعلقة بتاريخ الاستعمار الفينيقي لم تميز دائما - كما يعتقد ذلك ب. سانتاس - بين طور التعرف والاكتشاف الذي يفسح المجال لتجارة غير منتظمة وبسيطة نسبيا، وبين طور الاستعمار الحقيقي الذي تؤسس فيه المراكز التجارية القارة.

وإذا بلغ البحارة الفينيقيون -كما هو محتمل جدا- سواحل المحيط الأطلسي منذ القرون الأخيرة من الألف الثانية قبل المسيح، بحثا عن ذهب السودان من جهة، وعن فضة اسبانيا وقصدير جزر الكسيتيريد (جهة فان) (Vannetais) التي تصل طرقها إلى "ترشيش" قرب مصب الواد الكبير من جهة أخرى، فإن الاستعمار الفينيقي -على ما يبدو- لم تتوطد أركانه إلا شيئا فشيئا من الشرق إلى الغرب. ولقد استقر الفينيقيون في أول الأمر على سواحل "سرتا" ثم أقاموا في قرطاج من دون شك قبل أن يؤسسوا مستعمرات حقيقية. وهذا ما تؤيده الرواية التي نقلها ديودورس الصقلي (20 -V) وما نستنتجه أيضا من أنه لا يوجد قبر واحد من القبور البونيقية المكتشفة إلى هذا اليوم على السواحل الجزائرية المغربية أقدم من القرن الخامس أو القرن السادس على أكبر تقدير (في تيبازة.Tipasa) على بعد سبعين كلم غربي الجزائر.

أوائل قرطاج:

إن قرطاج لعبت دورا عظيما في تاريخ إفريقيا الشمالية. إلا أنها قبل أن تبز المراكز الفينيقية الأخرى وتصبح عاصمة بعد ما كان من تقلبات صور وخرابها سنة 332، لم تكن في أول أمرها سوى إسكلة متواضعة بين سائر مراكز التموين الأخرى. وقد كشفت الحفريات التي تواصلت من سنة 1944 إلى 1947 بصلامبو في منطقة قرطاج القديمة على معبد يرجع عهده إلى ما قبل الطور القرطاجي. وما وجد فيه من أشياء لا يترك مجالا للشك في وجود بحارين شرقيين في هذه الجهة منذ آخر الألف الثانية أو أولى قبل المسيح. إن بعض المستعمرين القادمين من "صور" وقبرص الذين تعتبرهم الأسطورة -خطأ على ما يبدو- لاجئين هم الذين أسسوا حوالي سنة 814 في عهد الملك بغماليون "قرط حدشت" أي مدينة حديثة، في الخليج الذي تنصب فيه مياه واد مجردة وواد مليان ملتقى جانبي البحر الأبيض المتوسط. ويقال: إن أخت "بغماليون" عليسة (أو ديدون) ملكة "صور" هي زعيمتهم، إلا أن وجودها وإن كان ممكنا فهو مشكوك فيه.

إن وضع قرطاج الجغرافي كان يساعد على التوسع الإفريقي والتبادل مع العالم الشرقي أو الغربي. وكذلك كان لوضعها العسكري مزايا هامة لأنها أقيمت كغالب المدن الفينيقية، في رقعة من الأرض متوغلة في البحر لا يربطها بالبلاد إلا قطعة مستطيلة تفصل بين بحيرة تونس التي كانت صالحة للملاحة وسبخة أريانة وبذلك كانت تتحدى حصار الأعداء مثل "صور".

لقد كانت قرطاج متواضعة في أول تاريخها، تدفع الخراج وتقدم الهدايا لمعبد هرقليس "الصوري" مما جعل بعض المؤرخين يرون هذا العمل الذي قد لا يكون سوى مظهر للتقوى دليلا على خضوعها لصور، وواصلت قرطاج دفع الضرائب السنوية الليبيين طيلة ثلاثة قرون ونصف من غير انقطاع يذكر.

إلا أن هذه المدينة بفضل هيبة طبقتها الارستقراطية ومهارتها، وخاصة بفضل ما اتصفت به عائلة "ماغون" القوية من روح المبادرة، استغلت انحطاط "صور" وفرضت شيئا فشيئا حمايتها على المدن الفينيقية ثم ما لبثت أن سيطرت عليها. وينبئ الأثاث الذي عثر عليه في قبور القرن السابع على اتساع مجالها التجاري وتضخم ثرواتها حتى أنها تمكنت سنة 654 من إرسال معمرين في جزيرة "بتيوز" (Pityuse) (إبيسا).

ولعل تناقص الذهب والتحف الفنية في قبور القرن السادس يدل على تضاؤل ازدهار قرطاج، ذلك أن اليونان كانوا يبسطون نفوذهم في ذلك الوقت على غربي البحر الأبيض

المتوسط. وقد أصبح الفرس يسيطرون على "صور" ومصر وقريني. لكن قرطاج ردت الفعل بشدة، ووجدت من الزعماء البارزين من أعانها على بسط استعمارها الناشئ، مثل "مالكوس" الذي حارب في صقلية وسردانيا و"حقق أشياء عظيمة ضد الإفريقيين" على حد تعبير يوسطينوس ثم ختم نشاطه بافتكاك الحكم حوالي سنة 550.

وتمكنت قرطاج من طرد "الفوسيين" من جزيرة كرسيكا بإعانة "الاترورين" بعد انتصارها البحري بألاليا (أليريا في الساحل الشرقي حوالي 535). واستعانت بالليبيين في آخر القرن السادس لطرد "دوريوس" وهو ابن أحد ملوك سبارتا أقام إمارة في ليبيا طيلة سنتين، بين سبرتا الصغرى سبرتا الكبرى واضطر إلى الالتجاء إلى صقلية حيث انهزم تحت ضربات القرطاجيين والسجستيين.

2 - محاولات التوسع في صقلية - هيمير (Himère):

لم تكن قرطاج من القوة بحيث تستطيع أن تمنع استعمار اليونان لصقلية، واقتصرت على الانتصاب في القسم الغربي من الجزيرة بما فيه مدينة "بالرمو" (بانورم) و"سولنت" كستلودي سولانتو شرقي بالرموومونيه (في جزيرة سان سنتليو بالقرب من سواحل ليليبي) ولكنها ما كان يمكنها أن تبقى مكتوفة الأيدي أمام زحف منافسيها الناشطين. وكان الطاغية "جيلون" الذي استولى على "سرقوسة" (سنة 485) وجعل منها أغنى مدينة في العالم الهيليني، يعتمد على تحالفه مع مدينة "أقريجنتي" (Agrigente) التي أخضع طاغيتها "تيبرون" البلدان الواقعة بين بحر ليبيا وبحر التيرهني وبذلك تكونت جبهة يونانية شديدة على الفينيقيين سياسيا وخاصة اقتصاديا.

ويظهر أن الأزمة اشتدت شيئا فشيئا في طي الخاء طيلة سنوات عديدة قبل أن تؤول إلى الغزوة القرطاجية العظمى سنة 480. فقد نزل الجيش "ببانورما" ومنها إلى هيمير حيث محقته قوى الطاغيتين المتحدة. فدفعت قرطاج 2000 وزنة أوبية (Talents) غرامة ثم رجعت من حيث أتت هي وحلفائها من "ريجيون" و"سيلنونت". ويقال إن معركة هيمير التي تحطمت فيها المطامح الفينيقية جرت في نفس اليوم الذي وقعت فيه معركة "سلامين" التي وضعت حدا لزحف الفرس. وتسرع المؤرخون فافترضوا أن القرطاجيين والفرس كانوا متحدين ضد اليونان. وأقرب الظن أن ذلك كان محض صدفة.

3 - أوائل التوغل الإفريقي:

يظهر أن ما اكتشف من آثار القبور بعد هذه النكبة يدل على أن قرطاج اضطرت

إلى وضع حد لهيمنتها البحرية والانطواء على نفسها. وفعلا كانت مرسيليا حائلا دون مواني بلاد "غوليا" و"اسبانيا". وكانت كورسيكا تابعة لحلفائها الاتروريين. أما صقلية فقد كان معظمها خارجا عن نفوذها. فلعلها وجهت جهودها نحو الأرض الإفريقية. ذلك أنها أخذت في النصف الثاني من القرن الخامس تغزو على حساب الليبيين جهات اقتطعت فيها طبقتها الارستقراطية أراضي فلاحية. كما أخذت تجند المرتزقة. إلا أن توسعها العنيف أثار ردود فعل شديدة فقد والى البربر في القرن التالي ثوراتهم وعبروا إزاء البونيقيين عن تعلقهم بالاستقلال الذي اصطدم به جميع الغزاة.

وكان توسع قرطاج منذ أواسط القرن السادس من عمل الماغونيين بالخصوص وتوصلت الطبقة الارستقراطية -التي تهتم بما توره التجارة من أرباح أكثر من اهتمامها بالانتصارات الحربية- إلى التخلص منهم بعد أن خضعت لنفوذهم طيلة قرن كامل (حوالي 450). إلا أنها مكنتهم سنة 409 من الرجوع إلى سياستهم التوسعية في صقلية. ولكن لم يكن لقوادهم الجرأة الكافية ولم يكونوا جادين في الغزو. فلم يستغلوا انتصاراتهم الكبرى ورضوا بمعاهدات صلح توطد استعمارهم.

4 - انتصار دونيس صاحب سرقوسة:

واستغل حفيد المهزوم سنة 480 خصومات المدن اليونانية فاستباح سيلينونت وهيمير(409) ثم أقريجنتي(406). فثارت سرقوسة على أرستقراطيتها العاجزة واتخذت زعيما أوحد من أصل متواضع وهو دونيس الذي سعى إلى تطعيم القوى الهيلنية الواهية بما لأهل سيكول ورعاع الايطاليين من طاقات جديدة. ولم يقهر البونيقيين تماما إلا بعد أربعة حروب. فقد انهزم أول الأمر في وقائع كثيرة واضطر أمام عنف هجومات البونيقيين الشديدة إلى التخلي عن مدينتي جيلة وكمارين. وإلى منح ليونتيني ومسينا استقلالهما (سنة 409) ثم حصن سرقوسة وأعاد الكرة سنة 408 وانتقم من مدينة "موتية" أفظع انتقام.

فحولت قرطاج عاصمة ممتلكاتها الصقلية إلى ليليبي (مرسالة) وشنت بجيوشها الجرارة حربا انتقامية. فاستولت على مسينا وكادت تفتح سرقوسة. ولكن الطاعون نال من جيوشها. وكلل أحد هجومات دونيس المعاكسة بالنجاح فاضطرت إلى دفع 300 وزنة أوبية غرامة وإلى التخلي عن سيلينونت وهيمير وتسليم مرتزقتها الليبيين أو الإسبانيين للفتك أو الاستعباد (سنة 396). ولكن الحرب ما لبثت أن اشتعلت نيرانها من جديد فاستمرت حتى موت الطاغية تتخللها فترات هدنة متفاوتة الطول.

5 - أغاثوكل وحرب افريقية:

اغتنمت قرطاج ما تبع موت دونيس (367) من خصومات لأجل الحكم ومن تصدع إمبراطورية سرقوسة لاسترجاع "أقريجنتي" و"جيله" إلا أنها تقهقرت من جديد إلى ما وراء حاليقوس (345 - 340) (Halycos) عندما هاجمها تموليون الكورينتي الذي استعان بعناصر جديدة من بين المستوطنين اليونانيين وأحجمت عن الهجوم على صقلية من جديد بعدما رأت ما رأت من سقوط صور على يد الإسكندر(332) الذي أصبحت تخشى هجومه على افريقية ولكن أحد قوادها لم يتمالك عن التدخل في خصومات الأحزاب التي كانت تتنازع سرقوسة فدفع بابن أحد العمال إلى الحكم وكان جاهلا ولكنه ذو حزم وعزم اسمه أغاثوكل (سنة 317).

ولم ترض الارستقراطية القرطاجية عن الإعانة التي منحت إلى هذا القائد المنحدر من الشعب والذي بادر منذ توليه الحكم بإعدام الأقلية الحاكمة وفسخ جميع الديون وتوزيع الأراضي (سنة 314) فهاجمته بأساطيلها وجيوشها انتصرت عليه وحاصرت سرقوسة. ولكن أغاثوكل لم يكن بالرجل الذي تفت في عزمته الهزيمة. فلما انهزم في صقلية حاول خداع أعدائه وتجرأ على محاربتهم في ديارهم.

فقد تخلص من الحصار وتمكن من النزول في جنوب الوطن القبلي على رأس 14000 من رجاله (سنة 310) ثم صرف أسطوله واستولى على 200 بلدة منها حضرموت (سوسة) حسبما يروى. ولكن قرطاج لم تتأثر بما قام به من غزوات طيلة عام كامل. إذ كانت بأسوارها وبتزودها عن طريق البحر في مأمن من خطر الحصار. وعندئذ أغرى أغاثوكل أوفيلاس المقدوني الذي أسس في قريني إمارة مستقلة عن ملك مصر ووعده بأن يمكنه من أن يكون على رأس إمبراطورية افريقية أرسل إليه المرتزقة من اليونان. وسرعان ما تخلص أغاثوكل منه وأفسد عليه جنوده. وتمكن من مضاعفة عدد جنوده ومن الاستيلاء على أوتيكة وهيبوديايتوس (بنزرت) واحتلال كامل تراب القرطاجي. وأسس دور صناعية ليربط الصلة بصقلية (308 - 309).

ثم إنه أدرك أن لا مخرج له من هذا الغزو فعدل عن إرهاب قرطاج والتحقق بصقلية ثم اضطر بعد سنة إلى العودة وحاول بدون جدوى تفادي الكوارث التي عقبت رحيله. ثم آل به الأمر إلى التخلي عن جنوده والهروب بمفرده كما فعل بعده بونبارت في مصر. ففتك جيشه بأبنائه وباع لقرطاج الأراضي المحتلة.

إن فعلته الجريئة التي يبدو أنها ختمت بالانهيار لم تخل من عواقب. وأنه لم يحرص

على الاستيلاء على قرطاج بل أراد أن تكون له اليد الطولي في صقلية. فقد رضي البونيقيون بإبرام معاهدة صلح معه ودفعوا له غرامة قدرها 150 وزنة أوبية و100.000 هكتوليتر من القمح وملكوه على القسم الشرقي من الجزيرة كما أعادوا له حدود حاليقوس (سنة 306) ومات أغاثوكل قبل أن يحقق ما كان يعتزمه من احتلال لافريقية (سنة 289) غير أنه فتح الطريق لأعداء قرطاج وسوف لا ينسى ريقولوس (Regulus) ولا شيبيون الإفريقي هذه السابقة.

6 - بيروس وهيرون صاحب سرقوسة:

واغتنم البونيقيون فرصة الحروب المدنية التي تبعت موت أغاثوكل للتدخل من جديد في صقلية فحرروا المدن المحتلة وأرجعوا سرقوسة إلى حدودها الأصلية. أما المامرتانيون أي المرتزقة الايطاليون فلم يرجعوا إلى "كمبانيا" بعد أن اضطروا إلى الجلاء عن سرقوسة وتمكنوا من الاستيلاء على مسينا، ومنها قاموا بهجوماتهم حتى صقلية الغربية.

لقد كانت قرطاج تؤمل فتح جزيرة صقلية كلها. فبينما كان المغامر الجريء إيبيروس ملك إبير(Epire) يحارب في ايطاليا أمضت اتفاقية مع رومة نعترف لها فيها بسيطرتها على صقلية. وبينما كانت تحاصر سرقوسة استنجد القواد المحاصرون ببيروس (Pyrihos) فتخلى الملك " ايبر" عن عدد من الممتلكات البونيقية في ليليبي وفكر في نقل الحرب إلى افريقية نفسها ولكنه مني بهزيمة عسكرية، واصطدم بثورات الصقليين. فخاب ظنه ورجع إلى ايطاليا (ربيع 275). فما لبثت قرطاج أن بسطت نفوذها من جديد على غربي الجزيرة واستغلت قلاقل سرقوسة الداخلية والأزمات الواقعة بين أهل سرقوسة والمامرتيين. فأقامت ثغورا على طول سواحل صور واحتلت جزر ليباري (Lipari) والجزر الإيولية (Eoliennes) ثم تقدمت إلى ميلس ومسينا وقضمت من تراب سرقوسة. وكان الغزو التجاري ملازما للغزو العسكري أو ربما كان يسبقه. وكان ضم قرطاج لصقلية يبدو قريب المنال.

وفي هذه المرة أيضا أنجبت سرقوسة قائدا اسمه هيرون (Hiron) (سنة 270) أنقذها بوضع حد للفوضى الداخلية، ومحق جيش المامرتيين (Les Mamertins). وكان في إمكانه ولا شك التوغل حتى مسينا إلا أن قائد الأسطول البونيقي سبقه بوضع حامية فيها (268 - 269) ولقد تمكن هيرون من كسب صداقة الشعب الروماني على الأقل.

7 - قرطاج وروما وجها لوجه:

عندما استولت قرطاج على مسينا وجدت نفسها وجها لوجه مع روما التي لم يمض وقت طويل حينئذ على استرجاع سلطتها على "ريجيون" في الضفة الأخرى من المضيق. وكانت العلاقات بين المدينتين إلى ذلك الوقت أقرب إلى الود منها إلى أي شيء آخر. فقد ضبطت معاهدات كثيرة منذ قرون حقوق كل منهما على الأخر. ويعتقد بعض العلماء على غرار بوليب (Polype) أن أقدم معاهدة ترجع إلى السنة الأولى من انتصاب الجمهورية الرومانية (سنة 509) في الوقت الذي كانت الثورة تحد فيه من مدى التوسع الروماني معتمدين في ذلك على سمعة "ستيفان قزال" الكبيرة. غير أنه منذ ظهور دراسات "مومسن" (Mommssen) رأى علماء آخرون أمثال هـ.نيسان (H. Nissen) وأ.ملتزر (O. Meltzer) وأ.بايس (E. Païs) وأ.بيقانيول (A. Piganiol) أنه يمكن أن توجد معاهدة قبل سنة 348 بل يذهبون إلى أنه يجب تطبيق النص الثاني لبوليب على المعاهدة الأولى. ومهما يكن الأمر فإن الاتفاق ينص على أنه في إمكان روما أن تتاجر مع صقلية القرطاجية بكامل الحرية وحتى في ميناء قرطاج نفسه. لكنها تؤكد أنه لا يمكنها تجاوز البحار الواقعة وراء رأس سيدي المكي شمال قرطاج، ووراء "ما ستياطرسيون" (قرب رأس بالوس قريبا من المكان الذي ستشيد فيه قرطاج) وأنه لا يمكن لمراكبها إذا ما هبت العواصف أن ترسي في مواني افريقية وسردانية أكثر من خمسة أيام. وإذا صدقنا المؤرخ اليوناني فيلينوس الاقرجنيتي فإن المعاهدة الثالثة (سنة 306) التي لم يتوصل بوليب إلى معرفة نصها تمنع على قرطاج أن تتدخل في ايطاليا كما تمنع على رومة التدخل في صقلية. وتقر الاتفاقية الأخيرة (سنة 278) التي أبرمت أثناء حرب بيروس حقوق قرطاج في التجارة مع الغرب إلا أنها تنص بالخصوص على بنود عسكرية لا تزال غامضة.

لا شك أن رومة التزمت منذ 306 بعدم التدخل في صقلية ولكن قرطاج أقامت الدليل منذ أن استولى بيروس على تارنت (Tarente) أنها لا تقيم وزنا لما التزمت به من حياد في ايطاليا. ولم تكن سوء نية رومة تقل عن سوء نية قرطاج. وكانت مطامعهما في الاستيلاء على مضيق مسينا تكيف موقفهما قبل أي شيء آخر.

وعندما أطرد المامرتانيون من مسينا استنجدوا برومة إثر ضغط المجالس المئوية (Comices centuriates) على مجلس الشيوخ وتصويتهم لمبدإ التدخل. ولعلهم كانوا تحت تأثير العائلات الكبرى التي أصلها "كمباني" وسمنى فاجتاز أبيوس كلوديوس (Appius Claudius) المضيق وأقام حاميته في مسينا (سنة 264).

II - الحروب البونيقية:

1 - الحروب البونيقية الأولى - ميلاي:

لم تشهر رومة الحرب لكن قد أصبح لا مفر منها بسبب سلوكها. وبدعوى أن قرطاج تعد العدة للهجوم على ايطاليا بادرت لأول مرة بشن حرب وقائية هي مظهر من مظاهر نفاق استعمارها الاقتصادي والعسكري.

ولم تكن قرطاج في الواقع ميالة للدخول في صراع مع رومة فلم ترد الفعل بشدة، وكانت واثقة من سيطرتها على البحار كما كانت رومة مطمئنة إلى تفوق جيوشها البرية. فلا هي قدرت على احتلال مسينا عنوة ولا حافظت على حلفها مع هيرون صاحب سرقوسة الذي استنجد بها عندما هاجمه ابيوس كلوديوس بغتة.

وفتح الرومان صقلية فاستولوا على أقريجنتي (-262 26) وباعوا 25000 عبد. ولكنهم سرعان ما تعطل زحفهم بسبب مناعة الحصون الساحلية وانتهى الهجوم البري إلى مأزق. وبات من الضروري القيام بهجوم بحري وهذا ما كان لهم الفضل في إدراكه. فهيأوا جميع الأسباب لإنجاح الخطة. ويقال: إنهم أعدوا أسطولا يحتوي على 100 سفينة خماسية و20 سفينة ثلاثية. وقد اقتبسوا صنعها من سفينة خماسية بونيقية ارتطمت بسواحلهم. ودربوا ملاحيهم على اليابسة قبل أن يبحروا. ولكنهم لم يعوزهم الحلفاء البحريون على الملاحة. وكانوا رغم ذلك في حاجة إلى قدر عظيم من الجرأة ليتجاسروا على مهاجمة أوسع الأساطيل شهرة. وقد أفادتهم هذه الجرأة فانتصر القنصل دويليوس في مياه ميلاي (ميلازو 260) بفضل المراسي المتحركة بواسطة البكرات مما أتاح للجنود اقتحام بواخر العدو. ثم حاصر أسطول رومة "ألاريا" (في كورسيكا) و"ألبيا" (ترانوفابرزانيا في سردينيا) ونهب رجالها سواحل جزر "ليباري" وربما سواحل مالطة (259-258)

2 - ريغولوس في افريقية:

ورغم ذلك فإن نجاح السياسة البحرية لم يأت بالنتائج المرجوة. فقد فشل القناصل في محاولاتهم فتح "طرابنة" (طرباني) و"بانورم" (باليرمو) بمهاجمتهما عن طريق البر. وعندما انتصر الأسطول مرة ثانية في "ليباري" بادر مجلس الشيوخ بشن هجوم على الأرض الإفريقية والنزول على سواحلها وكأنه مدفوع بذكرى أغاثوكل.

فهاجمت 330 مركبا تحمل 40000 جندي أسطول العدو فهزمته وأرست على سواحل

منت هي الوطن القبلى بقليبية (Clupéa) سنة 236 .ونهب الجنود منازل الشيوخ الريفية وسطوا على الماشية واستعبدوا 20000 من أعدائهم. ولما لاحظ مجلس الشيوخ السهولة التي انتصر بها جيوشه على قرطاج استقدم قنصلا وقسما من الجنود وحاول ريغولوس الذي بقي وحيدا في منصب القيادة على رأس 15000 من رجاله، أن يتفاوض في عقد الصلح مع قرطاج حتى لا يترك لخلفه الفضل في إبرام معاهدة السلم. ولكن القرطاجيين ضاقوا ذرعا بما عرضه عليهم من شروط فأعاد "زنتيبوس" وهو ضابط أصله من سبارتا، تنظيم الجيش القرطاجي وهاجم بفرسانه النوميديين وفيلته جيوش ريغولوس فشتت شملهم وأذاقهم طعم الهزيمة وعندئذ قدمت مراكب النجدة من ايطاليا لترحيل ما تبقى من الجيش الروماني أي ألفي رجل. ولكن عاصفة شديدة هبت عليها فغرق ثمانون مركبا من بين 460. والمؤرخون المحبون لتاريخ رومة يمجدون بطولة ريغولوس الذي أبى في زعمهم إلا أن يعود إلى قرطاج مضحيا بنفسه رغم تضرعات زوجته وأبنائه والشيوخ. ولكن من الواجب أن نحترز وألا نثق ثقة عمياء في هذا الدرس المؤثر في الوطنية. وعادت لقرطاج سيطرتها على البحار بفضل ضعف هذا القنصل وما تكبده الأسطول الروماني من هزائم فاضطرت رومة إلى أن تحصر جهودها في صقلية.

3 - نهاية الحرب:

لم يتمكن أحد الطرفين المتحاربين من الانتصار على الآخر انتصارا حاسما فلم تتمكن رومة من الاستيلاء على "ليلبي" (مرساله) ولا على "طرابنة" (طراباني) اللذين أصبحا معقل المقاومة القرطاجية. ومنيت بهزيمتين بحريتين (249) اضطرت معهما إلى تحديد أسطولها بستين مركبا. كما أن القواد البونيقيين لم تكن لهم القوة الكافية لشن هجوم معاكس حاسم أو أنهم أعوزتهم الجرأة الكافية للقيام بهذا العمل. إلا أن خطة "عبد ملقرط البرقي" الماهرة أقضت مضاجع الرومان. فقد اعتصم جنوده بقمم جبل "رقطة" قرب "باليرمو" (وهو جبل كستلاسيو أمام جزيرة دلافمينا من دون شك) وجبل "إيريكس" (جبل جوليانو المشرف على طرابنة) وعطلوا مواصلات جيوش العدو ونقل المعدات الحربية إليه.

لقد كانت رومة وقرطاج في حاجة إلى المال في ذلك الوقت. وكانت رومة تسمي العدد الكبير من القواد بحسب المكايد السياسية. أما قرطاج فقد كانت واثقة من عبقرية عبد ملقرط البرقي وحده وطالت العمليات الحربية من غير أن تتراءى النتيجة. إلا أن استعمار الرومان العسكري كان أثبت وأطول نفسا من استعمار قرطاج التجاري فسعت رومة إلى بلوغ هدفها بواسطة البحر. وطلبت من طبقة النبلاء تجهيز200 سفينة خماسية

هجمت بها على "طرابنة" وحطمت أو حجزت مجموعة من مراكب التموين البونيقية قرب جزر "أغادي" (10مارس241). ولم يكن لقرطاج مال كثير أو جيوش كافية فقبلت التصالح، ورضيت بالجلاء عن صقلية والجزر التي بين صقلية وايطاليا (ليباري من دون شك) وبدفع غرامة حربية تقدر ب 3200 وزنة أوبية أقساطا مدة عشر سنين.

4 - تسريح جنود قرطاج، وثورة المرتزقة:

خسرت قرطاج من جراء هذه الحرب 500 سفينة، وحرمت من مواردها القمرقية. فلما توافد عليها العشرون ألفا من المرتزقة الذين كانوا في صقلية لم تستطيع أن تدفع لهم ثمن القمح الذي استهلكوه، وإلى هؤلاء الذين نغلت قلوبهم عليها انضم الليبيون وقد أضنتهم الحرب من بدايتها. ثم إنه وقع حجز نصف الصابة وزج في السجن بجميع من عجزوا عن الدفع وصلب 3000 من إخوانهم الذين فروا من الجندية لأنهم أبوا أن يخدموا قضية ليس لهم فيها ناقة ولا جمل. فنشأت أزمة عن هذا الحقد المشترك على الظالم طيلة ثلاث سنين وأربعة أشهر بطابع الحرب الطبقية، وقد ضحت النساء البربريات بحليهن في سبيل الحرية وظهر القادة من صوف الثوار ولم تعرف الحرب هوادة.

"وماتوس" الليبي هو الذي أشعل نار الثورة، فاستجاب لندائه الحضر والبدو وسرعان ما التف حوله سبعون ألفا من الرجال يحدوهم نفس الحماس، وعينت قرطاج "حنون" لمقاومتهم وكأنها أرادت أن تتحداهم لأن الأفارقة كانوا لا يكرهون رجلا كما كانوا يكرهونه، ولم يقدر حنون على منعهم من احتلال البرزخ الفاصل بين قرطاج وتونس (سنة 240) ومحاصرة أوتيكة وبنزرت.

فاضطرت قرطاج إلى الاستنجاد بعبد ملقرط البرقي رغم أنها كانت تشك في إخلاصه. ففك الحصار عن أوتيكة، وأجبر العدو على الفرار، ولكن الذي أنقذ قرطاج هو في الحقيقة منافسات الأهالي التي عطلت دائما ما كانوا يبذلونه من مجهود للتحرر، وقد أمده الأمير "نارافاس" بعون الفرسان النوميديين، ومكنه بذلك من الانتصار على المرتزقة وحاول عبد ملقرط البرقي حينئذ تفريق صفوف الأعداء بالإكثار من الوعود، فرد المرتزقة الفعل بإبادة أعيان قرطاج وبذلك بدأت "الحرب الضروس".

ولعبت رومة على حبلين، فبعد أن زود تجارها الثوار طالبت قرطاج بتسليم كرسيكا وسردينا ودفع غرامة أخرى تقدر ب 1200 وزنة أوبية بعد أن هددتها بحرب جديدة (سنة 241). ثم هي بعد أن نجحت في مساومتها رخصت للبونيقيين في تجنيد المرتزقة بايطاليا

وسهلت عليهم التموين بينما حجرته على المرتزقة والليبيين وزود "هيرون" من جهته قرطاج، بحيث تألب حماة النظام القائم جميعهم على الثوار (حوالي 239).

وعندما تخلصت قرطاج من جميع مشاغلها الخارجية وكسبت حتى إعانة أعدائها بالأمس أتيح لها أن تضرب ضربتها الحاسمة فطوق عبد ملقرط البرقي المرتزقة في فج المنشار (بين الحمامات وزغوان)، وانهزم الليبيون في لمطة (Leptis Minor) رغم أنهم كانوا أشد مقاومة من المرتزقة، وصلب ماتوس ثم سلمت مدينتا "أوتيكة " و" بنزرت " أمرها إلى الغالب (سنة 237).

5 - الاستعمار القرطاجي في اسبانيا: عبد ملقرط عزر بعل:

خرجت قرطاج من هذه الحرب المدنية منهوكة القوى، فسعت إلى الإصلاح من حالتها المالية وسلطت عبد ملقرط البرقي على اسبانيا ومناجمها الفضية وتخلصت في نفس الوقت من المرتزقة الذين أبطرتهم الراحة وأنهكهم الضجر. وانطلق هذا القائد من "قادس" فاحتل الأندلس وخاض معارك بلغ إثرها البحر المتوسط، فشق بذلك بين البحرين طريقا تجارية ممتازة أصبحت تهدد مصالح "مرسيليا" التي كانت حينذاك سيدة "روطة" و"امبورياس" شمال "الايبرو". وكأنه أراد أن يسجل احتلاله للساحل الشرقي فأسس مدينة "أكرالانكي" (أليكانت) وكانت اسبانيا في ذلك الوقت ازدهرت فيها حضارة وفن يعبران عن امتزاج عناصر يونانية وبونيقية واسبانية، ولما مات عبد ملقرط وهو يحاصر "هليكا" (الش) ترك لقرطاج مناجم لا تنفد فضربت نقودا فضية كبيرة.

وواصل صهره عزر بعل سياسة آل برقة الشخصية أحدث في قلب المنطقة الغنية بالفضة مركزا بحريا وتجاريا ذا موقع ممتاز، وأسماه قرطاج الجديدة (قرطاجنة). وتضايقت رومة من اطراد نجاحه وخشيت أن يتم التحالف بين البونيقيين والغوليين وخاصة الاستيلاء على المراكز التجارية التابعة لمرسيليا. وتوصلت إلى أن يلتزم عزر بعل، بعد أن ضغط حليفتها عليه ولا شك، بعدم تجاوز "الايبرو" في فتوحاته (حوالي 226).

6 - خطوات حنبعل الأولى:

أحدث اغتيال عزر بعل اضطرابات في قرطاج، واتهم "آل برقة" بأنهم يستغلون ثروتهم الاستعمارية لتمويل أتباعهم وإغراء خصومهم بالمال. ولكن الجيش في اسبانيا لم يكن ليقيم وزنا لتقلبات الرأي العام واختار حنبعل، ابن عبد ملقرط البرقي، قائدا

له، وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره. كشفت الأيام عن قدرته النادرة على القيادة والتنظيم.

لا شك أن عبد ملقرط البرقي أضمر حربا أخرى للأخذ بالثأر، فقد طالب ابنه ولما يزل في التاسعة من عمره، أن يقسم في معبد قادس بأن يحقد على الرومان حقدا أبديا. وقبل أن يشرع حنبعل في تحقيق مشاريع أبيه بتوسيع رقعة العمليات في اسبانيا فتوغل حتى بلغ الالغادا (قرب منابع وادي آنة) و"الفاكيين" (على ضفة الدورو) الذين افتك منهم "سلامنتكا" (Salamanque) ثم هزم جيش "الكرابطة" الجرار (قشتالة الجديدة) على ضفة "التاج".

ولما استولى على الجهات الكائنة شرقي "الايبرو" استعد لمهاجمة "ساغونته" (مورفيدرو)، بدعوى أنهم في خصومة مع حلفائه الإسبان. وفتحها عنوة سنة 219 بعد حصار دام ثمانية أشهر. فلم تحتج روما في ذلك الوقت إذ كانت "ساغونته" فعلا في جنوب "الايبرو" ولم تكن متيقنة من محالفة ساغونته (Segonte) لها إلا أن مصالح مرسيليا التجارية كانت بلا شك من الأهمية بحيث أثرت على سياسة روما. كما أن رجال المال الايطاليين تحيروا من الاستيلاء على مناجم الفضة. وعندما رفض الشيوخ البونيقيون الضرب على أيدي حنبعل رغم الإلحاح لم يجد سفراء رومة بدا من إشهار الحرب (218).

7 - الحرب البونيقية الثانية: معركة ايطاليا:

إن رومة لم تقرأ حسابا لعبقرية حنبعل الذي كان ينتظر هذه القطيعة لينفذ خطة الهجوم. فاجتاز "البرقي" نهر الايبرو ثم البيرنيه على رأس 50000 من المشاة و9000 من الفرسان و37 فيلا (جوان 218)، وتمكن من عبور نهر "الرون" حوالي منتصف شهر أوت وحاذاه في اتجاه منبعه إلى حيث يلتقي هذا النهر بنهر الايزير. واختار الطريق التي لم يشدد الرومان حراستهم فيها لاجتياز جبال "الألب". ولا تزال المناقشات مستمرة لمعرفة هل أنه مر بالقرب من فج سان برنار الأصغر أو وادي "الارك" فجبل الاقنيس أو الإيزير الأسفل فجبل "جونيفر". وكان مروره عبر هذه الأنهار والجبال عسيرا جدا، خصوصا بالنسبة للفرسان وحاملات العدة. وبعد مسير خمسة أشهر من بينها خمسة عشر يوما في الجبال بلغ الجيش القرطاجي "الطورينا" في وادي "بو" (آخر سبتمبر) ولم يبقى منه إلا 12000 إفريقي. و8000 اسباني و6000 فارس و21 فيلا. وقد كلف حنبعل جنوده

فوق وسعهم، آملا أن يجد في شمال ايطاليا حلفاء، وأن يكون جبهة ضد روما التي كان "البوبون" قد ثاروا عليها عندما أسست مستعمرتي "بليزانس" و"كريمون".

وحينئذ لم يعد القناصل يسيطرون على الموقف. فبعد أن اضطر" ب.كورنيليوس شيبيون" الذي كان أرسل جيوشه من مرسيلية إلى اسبانيا، إلى العدول عن ملاحقة القرطاجيين في وادي "الرون" تسلم قيادة الجيش المعسكر قبالة الألب (Cisalpine) واجتاز نهر "البو". ولكن الفرسان النوميديين دحروه شرقي تيسينو (Tessin) فتقهقر إلى ضواحي بليزانس (Plaisance) وراء تريبية. وقد نالت هذه المعركة التي دارت بين طلائع الجيشين من هيبة الرومان فانضم الجنود "الغوليون" إلى العدو وتحالف شعب "أنسيبر" مع البونقيين.

وسجل حنبعل بفضل عبقريته انتصارات عسكرية تدعوا إلى الإعجاب فهزم جيوش "سيروتيوس" و" ب. شيبيون"، وبرد الشتاء في أوجه، على ضاف نهر تريبية، وقتل أو غرق ثلاثة أرباع أعدائه. وقد غذى هذا الانتصار الذي تبعته دعاية واسعة ثورة "الغوليين" ثم اجتاز حنبعل بصعوبة جبال "الآبنان" سالكا طرقا محفرة حتى "صدفة لوك" ثم اخترق وادي أرنو (Arno) وتوجه نحو "بيروزا" تاركا على يساره " أريتيوم" حيث كان يعسكر جيش القنصل " أفلامينوس". ولم يبق له إلا فيل واحد. فحصر أفلامينوس نفسه في مضيق كائن بين بحيرة "طرازمان" وهضاب الشمال كأنه أوقع بنفسه في فخ وذلك من غير أن ينتظر زميله "سرفيليوس" الذي كان في "أرمنيوم". فهلك مع 15000 من رجاله وأسر 15000 آخرون. واحتفظ حنبعل بالرومان وخلى سبيل الحلفاء وبذلك وقف في مهارة موقف المدافع عن الحريات الايطالية.

واحتل الجيش البونيقي عبر الابينان الامبري، البيسينوم التي لم تخضع لسلطة رومة إلا منذ نصف قرن فقط. فوجد الزاد والحليف، والراجح أنه اتصل ب " الماروسيين والبيلينيين القاطنين في الابنان والأوسط وحرضهم على العصيان. ولكن رومة عينت "كانتوس فابيوس مكسيموس" خصم أفلامينوس القديم دكتاتورا وهو من أنصار الحرب التي تنهك قوى العدو بطول المقاومة. بدون الاصطدام به وجها لوجه. ولما اقترب من عدوه انتقل حنبعل إلى سهل "دوني" ثم إلى "كامباني" وتزود من خيرات تلك الجهة. فلحقه " فابيوس" وكاد أن يقبض عليه إلا أن الرومان ملوا هذه البطيئة اللينة التي كان يسير عليها هذا الدكتاتور "المتأني" واعتقد الشعب أن الرعاع المتنبلين اتحدوا

مع الارستقراطيين لمواصلة الحرب دون جدوى فعين شخصية جديدة معروفة ببلاغتها المتحمسة هي " تارتيوس فارو" لتشارك القنصل إميليوس بولوس في الحكم.

ووصل حنبعل إلى سهول "أبولي" واستحوذ على المخازن الحربية "بكانة" وعسكر الجيش الروماني الذي كان يضم ما يقرب من 80000 بالقرب منه. وبدأ "فارون" المعركة بالرغم عن ايميليوس على الضفة اليمنى من "الاوفيد" (أوت 216)ونجح حنبعل الذي كان عدد جنوده لا يتجاوز نصف عدد جنود الرومان في تطويق العدو من كل جانب. وقتل "ايميليوس" و45000 روماني وأسر 20000. ولاذت فلول الجيش الروماني بالفرار والتحقت بكانوزيوم تحت جنح الظلام. وفر "فاورون" كذلك. فرأى مجلس الشيوخ من الدهاء أن يقتبله معززا مكرما.

ويتساءل المؤرخون لماذا لم يستغل حنبعل انتصاره. ولا شك أنه كان يرى من المستحيل محاصرة رومة. ولعله كان يأمل أن يجنح مجلس الشيوخ إلى التفاوض. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث. وقد جلب انتصاره في "كانة" بعض الحلفاء. وخاصة مدينة "كابو" في جنوب ايطاليا كما أنه مكن قرطاج بعد موت هيرون من مضاعفة بسط نفوذها في صقلية. ولكن ايطاليا الوسطى لم تحرك ساكنا ولم تتكون أية جبهة في البحر المتوسط من شأنها أن تهدد مستقبل رومة.

ومنذئذ استحالت الملحمة مغامرة. وانهارت قوة حنبعل شيئا فشيئا ابتداء من سنة 213. فقد أطرد الرومان مدة سنتين البونيقيين بدون رجعة وسقطت كابو في يد الرومان ونالها عذاب عسير كما فتح "كرنوليوس شيبيون "الأندلس وفقدت قرطاج جراء ذلك زمام الحرب (208-207) وتمت مشيئة القدر وعندما حاول عزر بعل فيما بعد نجدة أخيه انهزم وقتل قرب " الميتور" (جوان. جويلية207) وآل الأمر بحنبعل إلى أن ظل معسكرا بالبرونيوم حيث لم يتجاسر أحد على اقتحام مكانه.

8 - شيبيون الإفريقي:

لما عاد شيبيون من اسبانيا (206) (وهو ب. كورنوليوس شيبيون الذي لقب الإفريقي بعد انتصاره) اقترح مواصلة الحرب في أرض افريقية نفسها. ولم يتحمس الشيوخ لمشروعه. ولكن الشعب قبله. فأعد العدة للهجوم معتمدا على ما أمدته به مقاطعة صقلية من موارد. وعلى الجنود الذين خلبهم بسمعته. وقد كان أجرى محادثات إيجابية مع الإغليد سيفاكس. أمير مازيسولة أو نوميدي الغرب ومع "الإغليد " مسينسا ابن ملك ماسولة أو نوميدي الشرق الذي اضطره سيفاكس إلى أن يكون من الأنصار

ومستعدا دائما لقيادة القبائل الثائرة. غير أن سيفاكس تزوج من سوفونيسب الجميلة ابنة عزر بعل جسكون التي كان لها الأثر البالغ عليه فحملته على التحالف مع قرطاج ورد مسينسا إلى أقصى سيرتا الصغرى. فلم يبق لشيبيون بعد هذه الخيبة إلا الاعتماد على قواه الخاصة.

9 - معركة افريقية:

وما إن حمل ضغط الطبقة الشعبية مجلس الشيوخ على السماح لشيبيون بالتوجه إلى افريقية (204) حتى نزل على كتيبتين بالقرب من أوتيكة وعسكر قرب المدينة (كستراكورنيليا) وجاب وادي مجردة من دون أن يعترض طريقه شيء. وقد كانت قرطاج المحتمية بأسوارها لا تخشى الهجوم. ولكن لم يكن لها جيش يذكر وكانت تؤمل تدخل أمراء البربر. ولكن مسينسا الذي استمالته قرطاج بوعودها الكثيرة انضم إلى العدو والمعركة على أشدها. واكتفي سيفاكس بمفاوضة الرومان حول مشروع للسلم. واغتنم شيبيون هذه المحادثات ليفاجئ العدو ويضرم النار في معسكر عزر بعل وسيفاكس. وبذلك قضى على جيشين فأهلك 40000 جندي وأسر 5000 آخرين (ربيع 203). فكانت هذه العلة حسب ما روى بوليب أجمل وأعظم ما قام به هذا القائد الشاب من الأعمال الجريئة.

وأخذ عزر بعل وسيفاكس يعدان العدة بمعونة السلتيين والاسبانيين للهجوم على العدو. ولكنهما خابا شر خيبة. وواصل شيبيون تقدمه محاذيا وادي مجردة. وانتصر على العدو في الدخلة. ثم عسكر بتونس وأخذ يهدد قرطاج (جوان 203) وتعقب مسينسا سيفاكس إلى أن ألقى عليه القبض ودخل سيرته. وهنا نجد أسطورة تعلق هذا البربري بسوفونسبة ابنة عزر بعل وانتحارها. وقد تسلى مسينسا على كل حال بتسلم شعار الملوكية.

رضي شيبيون أن يوقف العمليات الحربية ليمكن قرطاج من التفاوض من أجل الصلح وأيدته في ذلك مجالس الانتخاب (شتاء 203-202). ولكن مجموعة من المراكب الرومانية مثقلة بالمؤن ارتطمت بسواحل قرطاج فنهبها القرطاجيون وقد أخذ منهم الجوع مأخذه. ولما قدم السفراء الرومان للاحتجاج كاد الجمهور أن ينال منهم ضربا. فاضطر شيبيون إلى أن يضع حدا لوقف القتال. وكان سكان المدينة يعتمدون على حنبعل الذي طلب منه العودة من ايطاليا فاجتاز "البرقي" البحر من دون أن تعترض طريقه أية عقبة ونزل بلمطة في صيف 203 (Leptis Minor) ومنها وصل إلى حضرموت. فماذا فعل طيلة

السنة التي سبقت الاصطدام الكبير؟ لاشك أنه جمع حوله قبائل بربرية. وبينما كان في طريقه إلى الجيوش الأهلية التي أتى بها إليه أحد أبناء سيفاكس، "فرمينا" إذا به يلتقي بجيش في جهة الكاف. وتمت بينهما مقابلة لم تأت بنتيجة تذكر إذ رفض القائد الروماني الاقتراحات التي قبلتها قرطاج لإبرام الصلح: وهي التخلص عن اسبانيا والجزر، وتخريب الأسطول البونيقي ما عدا عشرين مركبا، وذلك مقابل الاعتراف لقرطاج بالسيطرة على افريقية. وحينئذ جرت المعركة الحاسمة بالقرب من جامه (Zama) ولا يزال مكانها المضبوط محل الأخذ والرد.

لقد أعوزت حنبعل النجدة التي كان يترقبها من "فرمينا"، بينما وصلت جيوش مسينسا لتعزيز صفوف شيبيون في الوقت المناسب. وكان جنود حنبعل تنقصهم الدربة وقد أخذ منهم التعب مأخذا عظيما. فانهزم القائد القرطاجي وفر إلى حضرموت تاركا 20000 قتيل في ساحة الوغى بينما وقع في أيدي العدو 20000 آخرون. وقد اعترف شيبيون بأن البرقي بذل في المعركة جامة كل ما كان يمكن أن يبذله بشر للانتصار (أكتوبر 202).

10 - خضوع قرطاج:

طلب القرطاجيون الصلح فقرر شيبيون أن تحتفظ قرطاج بترابها الإفريقي على شرط ألا تشهر الحرب إلا بإذن من رومة، وأن تتنازل لمسينسا عن مقاليد السيادة على البلاد النوميدية. واضطرت قرطاج كذلك إلى التفريط في فيلتها وأسطولها ما عدا عشر سفن ثلاثية، وإلى العدول عن تجنيد المرتزقة من بلاد غوليا وليغوريا وتسليم كل ما لديها من غنيمة، ودفع غرامة حربية قدرها 10000 وزنة أوبية منها 1000 تدفع في الحال وقبل إيقاف القتال، وأخيرا أجبرت على إرسال الرهائن إلى رومة.

ولم تجد قرطاج بدا من قبول هذه الشروط القاسية التي جعلتها عرضة لمطامح مسينسا (ربيع 201) ويقال: إن حنبعل رمى من أعلى المنصة بقرطاجي كان يطالب بمواصلة الحرب إلى النهاية معتقدا أن التشفي لا يجدي، بل من الواجب تحطيم ارستقراطية المال التي تتحمل قسطا وافرا من مسؤولية هذه الكوارث ووجه البرقي ضرباته الأولى ضد مجلس الشيوخ، ثم ظل يسعى إلى تحسين الوضع المالي والفلاحي بقرطاج إلى أن تعاظم حقد أعدائه عليه وازدادت مخاوف رومة منه فتقرر نفيه.

إن قرطاج خرجت منهوكة القوى من هذا الصراع بين البونيقيين والرومان الذي دام أكثر من ستين سنة. وقد أصبح من المألوف أن يرى المؤرخون في الحروب البونيقية مظهرا

من الصراع القائم بين الشرق والغرب، وبين مدنيتين ولنقل نحن: بين صورتين للاستعمار.

وسوف لا نتعرض للمدينة اللاطينية في هذا الكتاب إلا بالقدر الذي أثرت به على سياسة رومة الإفريقية. أما المدينة البونيقية فهي بالعكس تهم بلاد المغرب مباشرة، لا لأن قرطاج كانت عاصمة فحسب، بل لأنها أثرت كذلك تأثيرا بالغا في بلاد البربر.

III - المدينة القرطاجية:

1 - قرطاج: المدينة والميناء:

إننا لا نعرف عن قرطاج إلا ما كتبه عنها اليونانيون واللاطينييون، وكانوا معنيين أولا وبالذات بحروبها مع سرقوسة أو رومة. وليست لدينا مؤلفات تاريخية متواصلة الحلقات خطها أبناء قرطاج أنفسهم، وذلك ما يعلل الأسطورة التي ظلت أحقابا كثيرة تقابل بين حسن نية رومة والنفاق البونيقي. أما عن المدينة فإن النصوص لا تكاد تفيدنا شيئا كما لا يفيدنا الأثاث الجنائزي فائدة تذكر.

ولا يعنينا أن نأمل إحياء العاصمة البونيقية (إن لم نقل "المستعمرة القيصرية " التي تمكن ش.سوماني من ضبط موقعها الأصلي) إلا أنه لا يستبعد أن تمدنا الأبحاث المنظمة بصورة أقل وحشة من الصورة التي تسيطر على عقولنا اليوم.

إن مكان القبور والمعبد "ما قبل القرطاجي" الذي حفر عليه "ب.سنتان" في رمال صلامبو يشهدان بأن أقدم جهة لمدينة قرطاج كانت على ساحل البحر في سفح الهضبة المسماة "بيرضة" أو "سان لوي" ثم انتشرت على ضفة البحر والمنحدرات. ولئن لم يبلغ عدد سكانها 700000 كما يدعي سترابن فإنها كانت على كل حال مدينة عظيمة بالنسبة لذلك العهد. وقد كشفت حفريات حديثة عن بعض الديار، وربما عن بقايا من سورها في الجهة الشرقية خاصة.

وكانت قرطاج أثناء الحرب البونيقية الثالثة في حصن حصين تحوطها أسوار بلغ طولها 34 كلم وارتفاعها 13 مترا وسمكها 9 أمتار ويوجد عليها برج للدفاع كل 59 مترا. وتقع الساحة العمومية أو "الاغورة" (Agora) بين الموانى وبيرصة، ومنها تتفرع ثلاثة شوارع صاعدة إلى معبد أشمون ازدحمت على جوانبها بيوت ذات ست طوابق. وتحتل المقابر شمالا هضبة "الاوديون" بالقرب من درمش ودويمس وسانت مونيك (السعيدة). وبعدها تبدأ ضاحية مغارة محتلة مساحات شاسعة في جهة سيدي أبي سعيد.

إن الميناء المزدوج الذي كان القلب النابض للحركة التجارية بقرطاج حير علماء الآثار. وإذا نحن نظرنا شمالا وتأملنا الغديرين المتلالئة مياههما تحت أشعة الشمس بين صلامبو ودرمش تعذر علينا أن نتصور الحوض الكبير المستطيل الخاص بالتجارة الذي وصفه "آبيان" والمتصل بالبحر، وكذلك الحوض المستدير المحاط بسورين الذي يرسي فيه الأسطول الحربي حول جزيرة القيادة، إلا أن "بيلي" ذهب إلى الاعتقاد رغم ذلك في منتصف القرن الماضي بأن الجزء المهم من رسم الميناءين المحفورين (القطونKothon) يوجد في هذا المكان.

ومن يومئذ، أخذ علماء الآثار يفتشون عن موقعهما في قلب البحر بجون الكرم على سفح هضبة البرج الجديد أو في خليج تونس. وهل أدعى إلى السخرية من أن يرجع "ستفن قْزال" من جديد "وهو أحد كبار الباحثين وأعلمهم" إلى الفرضية التي تقدم بها "بوليBeulé " وذلك بعد نصف قرن من الحفريات والمناقشات العلمية.

2 - الاسكلة القرطاجية:

إن موقع هذا الميناء الممتاز المتصل بحوضي البحر المتوسط هيأ قرطاج لأن تلعب دورا في التجارة العالمية، وقد استغلت جميع مزايا هذا الموقع استغلالا منظما. وربما ورثت كل شيء من الاستعمار البونيقي في الغرب. فقد ورثت مراكزه التجارية وعرفت كيف تنمي هذا الإرث. لم تحاول قط بسط نفوذها السياسي في داخل البلدان المحتلة، واكتفت في افريقية نفسها بمساحة من الأرض متواضعة نسبيا. ولكنها ضمنت لنفسها مراقبة سواحل بلاد البربر المتوسطية والأطلسية، وكذلك سواحل اسبانيا الجنوبية ومراكز التموين الضرورية. وفي الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط: مالطة والجزر المجاورة وغربي صقلية وجنوبي سردانية وجزائر البلجار -وإذا هي لم تتمكن من إقصاء اليونان عن صقلية والسواحل الايطالية والغولية والاسبانية واضطرت، كما يفيدنا بذلك أرسطاطاليس إلى أن تحسب حسابا للاتروريين وإلى التفاوض مع الرومان في فترة معينة، فإنها حققت على كل حال مجموعة من نقط "الارتكاز" يكون مجموعها إمبراطورية حقيقية.

وهكذا كان لها أسكلة وزعت توزيعا ماهرا لتكون أسواقا ومراكز تموين: فنجد في افريقية أسواق سيرتا الصغرى والكبرى مثل لبدة (Leptis Magna) وقابس (Tacapace ou Tacapas) وموانى البلاد الليبية الفينيقية: رأس الديماس (تابسوس) ولمطة (لبتيس مينور) وسوسة (حضرموت) وأوتيكة وبنزرت (Hyppo Diarrytus)، وفي

شرقي رأس بوقرعون: عنابة (Hyppo Regius) سكيكدة (Rusicade) بجاية (Saldae) دلس (Rusccum) ماتيفو(Rusguniae) الجزائر العاصمة (Lcosium) شرشال(Lol) قبة سيدي إبراهيم (Guniga) تناس(Cartennae) وعلى ضفة البحر الأطلسي العرايش وتشميش(Luxus) ومستعمرات حنون وفي اسبانيا قادس (Gades) مالقة (Malaga) حدرة(Abdère) سكسي(Sexi)، وفي سردانية: ترى دي سان جيوفاني(Thanos) سانت أنتيوكو(Sulcis) سانت افيوزوز(Nora) كاغلياري(Caralis) ترانوفا (Olbia)، وفي صقلية، مدن الغرب: بالرمو Panormus)) مرسلا(Lilybacum).

وإذا احتفظت بعض المستعمرات كلمطة وأوتيكة أو قادس بنوع من الاستقلال فقد سيطرت قرطاج على بقية المستعمرات بشدة، ولم تتردد عند الحاجة في إجلاء السكان عن مناطق شاسعة أو فرض الضرائب المرهقة وخصت أصحاب السفن التابعين لها بتعاطي التجارة وحدهم وبذلك حالت دون أي تقدم اقتصادي في الموانى الأخرى.

3 - رحلات خيملكن وحنون:

أظهرت قرطاج في بحثها عن الأسواق جرأة نادرة وامتدت مطامحها إلى ما وراء أعمدة هرقليس. وقد أسند لاثنين من الماغونيين في أواسط القرن الخامس القيام بمهام في بلاد بعيدة. فحاذى "خيملكن" سواحل اسبانيا وبلاد غوليا إلى أن وصل على ما يبدو إلى انقلترا، وحتى إلى ارلندا نفسها. ولا شك أنه كان يعتزم تحويل تجارة القصدير والرصاص التي كانت تسعى مرسيليا في احتكارها إلى قادس. أما حنون "الملك" فقد اتجه نحو الجنوب مصحوبا بستين سفينة مشحونة بالمهاجرين. وعندما رجع أذن ينقش رواية مآثره التي نجد اليوم صدى لها في ترجمة أو تخليص باليونانية. إلا أن تأويل هذا النص لا يخلو لسوء الحظ من صعوبات كثيرة أدت بالمعلقين إلى أن يستنتجوا استنتاجات مختلة ومتنوعة.

فأما "س.قزال" فإنه يزعم أن حنون انطلق من قادس فأسس سبعة مراكز أقصاها جنوبا مركز "قرنة" الذي يوجد على سبيل التقريب في مستوى الجزر الخالدات (Les Canaries) ثم واصل سفره عرض السواحل الإفريقية إلى أن أشرف على خط الاستواء. وإلى عهد غير بعيد لم يقدح أحد في هذا التأويل الذي أصبح كالمرجع اللهم إلا في بعض الجزئيات. ومنذ بضع سنوات فقط انتقده كاركوبينو انتقادا لا هوادة فيه. وهو لم يناقش نقطة انطلاق حنون ولا خاتمة مطافه ولكنه عارض من سبقه في نقط ثلاث. فهو أولا لا يعتقد أن حنون اتبع خطا واحدا، بل يرى أنه قام بسلسلة من الرحلات ينظم كل واحدة

منها في مركز جديد أبعد من المركز السابق. وهو ثانيا يجعل جزيرة قرنة في نقطة أكثر توغلا في الجنوب قرب جزيرة "هرنة" الموجودة عرض "فيلاسز نيروس" (ريودورو). وهو ثالثا وبالخصوص يعتبر أن غاية هذه السفرة هي إحلال قرطاج محل "لكسوس" المركز الفينيقي العتيق في استغلال تجارة الذهب المستخرج من السودان والذي كانت القوافل تحمله إلى جزيرة قرنة. وبالرغم عن أن هذه النظرية أثارت بعض التحفظات، وربما شيئا من المناوأة الصريحة أحيانا فإنه لا مناص من الاعتراف بأنها ألقت الأضواء الكاشفة على هذه الرحلة التي كان الجميع يعتبرون الدافع الأصلي إليها حب الاطلاع العلمي. وما نعرفه عن البونيقيين يحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا بصفة عامة مهتمين بالتجارة لا بالجغرافيا. وقد ذهب أخيرا بعض المؤرخين إلى أن حنون لم يتجاوز قط واد الذراع جنوبا.

4 - القرطاجيون جوابو بحار:

إن حياة قرطاج واتجاهاتها السياسية تدل فعلا على أنها كانت مدفوعة دائما بضرورة البيع والشراء، وأن دورها الاقتصادي الرئيسي يتمثل على ما يبدو في جمع المواد الأولية ثم توزيعها على نحو ما فعله الهولانديون من بعد تقريبا. وكانت المواد المصنوعة تمثل عنصر المبادلة.

و أوضاع الإمبراطورية القرطاجية نفسها تؤكد أن الأساكل لم تكن لها أهمية من حيث الملاحة وحدها، بل من حيث إنها نقط الانطلاق والوصول بالنسبة للبعثات والقوافل. كانت منتوجات إفريقيا الوسطى كالذهب والعاج والجلود والعبيد تصل إلى سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى أو إلى المستعمرات الأطلسية، وكانت اسبانيا تزودها بفضة مناجمها وبالمعادن والعنبر المجلوبة من الشمال عن طريق البحر. وكان زيت صقلية وخمرها وحبوب سردانية ونحاسها وفضتها تصل كلها إلى قرطاج أيضا.

ويظهر أن هذه التجارة اعتمدت طويلا على مبدإ المقايضة البسيط. ولم تضرب قرطاج نقودها البرنزية الأولى إلا في النصف الثاني من القرن الرابع، وفي القرن الثالث ظهرت النقود الفضية. والذي دفعها إلى ضرب سكتها هي ضرورة عسكرية أكثر منها تجارية. فالشعوب المتفاوتة بدائية التي كانت لها روابط اقتصادية بقرطاج كانت قبل أن تتأثر بما ترمز إليه قطعة النقود المعدنية ترغب في اقتناء المنتوجات المصنوعة لترويجها عندها كالأقمشة وآنية الخزف والبلور والأسلحة، والمصنوعات الخشبية والعطورات وبصفة عامة البضاعة البونيقية الرديئة.

5 - الصناعة:

لم تتميز صناعة قرطاج لا بالنشاط الفائق ولا الابتكار المبدع، ومما لا شك فيه أن البونيقيين تخصصوا بحكم الضرورة في صنع السفن وآلات الموانئ التي ربما كانت من اختصاصات الدولة. إنهم صنعوا الحديد والنحاس والبرنز والمعادن الثمينة والأسلحة والمتاع المطلي أو البلوري وأدوات التجميل العاجية، والخرز، وخصوصا الجعلان المستعملة خواتم، والآنية الخزفية الصالحة للاستعمال، المزخرفة أو البسيطة، الموجودة بكثرة في القبور والتي تمتاز بتنوع الأشكال، وكذلك الأقنعة المكشرة أو الضاحكة المودعة في القبور أيضا، وبعض أواني الفخار المتقنة الصنع. ونجحوا أيضا في الصباغة والحياكة والدباغة. واشتهرت أيضا بصناعة الخشب البونيقية كما تشهد بذلك الصناديق الموجودة في "سميرات" و"جيغتي" بالخصوص. أما المنتوجات الممتازة والأنيقة فكانت تجلب من أماكن أخرى.

6 - الفلاحة:

لم يتيسر للفلاحة أن يكون لها إنتاج ذو بال لأنها كانت مقتصرة على الأراضي الليبية التي فتحتها قرطاج وضواحي مستعمراتها، إلا أن شهرتها كانت رغم ذلك عظيمة فمنذ أواخر القرن الرابع وقف أغاثوكل مدهوشا أمام ثروة الزياتين والكروم والماشية. وينسب الرومان إلى البونيقيين اكتشاف الأدوات الفلاحية. وأذنوا بترجمة كتاب الفلاحة الذي ألفه البونيقي ماغون في 28 جزءا. ولم يقتصر المؤلف على إسداء النصائح حول الزراعة وتربية الماشية بل ضبط كذلك ضبطا مدققا قواعد إدارة الأملاك الريفية.

ويتعذر علينا أن نضبط وضعية الأملاك في المناطق الإفريقية الخاضعة لقرطاج. فالذي لا شك فيه أن الطبقة الارستقراطية كانت تملك دورا ريفية فخمة في الغالب وسط أراض شاسعة، إن لم نقل ممتلكات فسيحة، كما سيكون الشأن فيما بعد بالنسبة للرومان الأغنياء. وليس من المستبعد أن نعتقد أن الدولة لم تستغل أملاكها بنفسها، وإن النبلاء كانوا يستغلونها مكانها. وكان الليبيون الذين انتزعت منهم أراضيهم هم الذين يخدمون الأرض بطبيعة الحال بصفتهم عمالا مسخرين أو رقيقا. ولربما شغلوا أجراء يوميين للقيام ببعض الأعمال.

والطبقة النبيلة الساهرة على إحياء الأراضي كانت تتعاطى زراعة الأشجار من زيتون وتين ولوز ورمان وكروم. وكانت تتعاطى تربة الخيل والبغال والبقر والغنم والمعز. وكانت

هذه المواشي كثيرة جدا حتى أن بوليب جزم بأن قرطاج لا تضاهي في هذا الميدان. إنها لم تستمد من أرضها أرباحا طائلة بدون شك أو هي على الأقل لم تستمد كل أرباحها من الأرض. وقد كان الأهالي يزرعون الحبوب. وكانوا يستعملون محراثا حديدته مثلثة الشكل وآلات الدراس المتنوعة.

وكان القرطاجيون يربون كذلك الدواجن ونحلا شمعه مشهور. كما كانوا ينتجون الزيت بأساليب لا يمكن الاهتداء إليها اليوم وخمرا كثيرة ربما عالجوها بالجبس. ولا شك أنهم كانوا صيادين في البر كما كانوا يتوغلون في البحر بحثا عن السمك فيملحون "التن" في المراكب نفسها.

وفي الجملة يظهر أن الاقتصاد الفلاحي المعتمد على علم فلاحي قائم بذاته ربما سمح بضمان الاستهلاك المحلي. ولكنه لم يوفر مادة كافية للتصدير.

7 - حكومة تجار:

إن قرطاج مدينة تجارية فكانت حكومتها حكومة تجار تخدم مصالحها. ولا نعرف في العصور القديمة بلدا أخضعت فيه الرأسمالية السياسة. واستغلت الأهالي المغلوبين على أمرهم كما فعلت الرأسمالية في قرطاج. لقد كانت أرستقراطيتها المتكونة من رجال الأعمال مستبدة قاسية شديدة الحذر تشبه شبها كبيرا أرستقراطية البندقية إذا استثنينا الثقافة والذوق.

وما ورد في كتاب أرسطو "السياسي" من معلومات (حوالي 225) لا يسمح لنا أن نتصور بدقة نظام الدستور البونيقي الذي يشبهه بدستور سبرتا. وربما كانت قرطاج في أول أمرها خاضعة لعائلة مالكة خلفها في الحكم "شافطان" كما خلف القناصل الملوك في رومة. وكان هذان الشافطان ينتخبان من طرف الشعب كل سنة فيتنافس المترشحون في استعمال الرشوة. ويساعد الشافطين مجلس الشيوخ المتركب على ما يظهر من ثلاثمائة عضو يتم اختيارهم مدى الحياة من الطبقة الارستقراطية. وهكذا أتيح لطبقة النبلاء المتوارثة أبا عن جد أن تفرض إدارتها طيلة قرنين. ولم يحد من سلطانها سوى المنافسات التي تنشأ من وقت لآخر بين أعضائها. وكان يدير الشؤون العامة مجلس يتركب من ثلاثين شيخا.

وكانت أهم السلط بيد هيئة أو ربما هيئات كثيرة تتألف من خمسة أعضاء (الهيئات الخماسية) يعينون أنفسهم بأنفسهم. ويختارون محكمة المائة والأربعة صاحبة

السلطة الكبيرة. وقد تم تأسيسها في القرن الخامس للحيلولة دون محاولة إقامة النظم الاستبدادية. وعندما تنتهي مأمورية المائة والأربعة يسند إليهم لقب "حاكم" لحمايتهم من الانتقام وتمتيعهم بالحصانة.

إلا أن هذا التخطيط الذي رسمناه لا يوافق إلا الحقبة الكلاسيكية، إن صح التعبير، من تاريخ قرطاج. فبوليب عندما يحدثنا عن مؤسسات هذه المدينة قبيل انهيارها يلمح إلى وجود مجلس شيوخ أقل نفوذا من ذي قبل ومجلس للشعب قد اتسعت مشمولاته وهو بذلك يشير إلى دولة أكثر ديموقراطية.

8 - شعب قرطاج ودوره السياسي:

إننا لا نعرف شعب قرطاج معرفة كاملة. فنحن لا نجهل حياته ومطامحه حسب، بل حتى تركيبه لا يزال غامضا أيضا. ولا شك أن المواطنين كانوا العنصر الأساسي فيه، ولكننا نجهل عددهم وبالخصوص نسبة هذا العدد من مجموع السكان فإلى جانب المواطنين كان يوجد الموالي والعبيد وكان عددهم كبيرا من دون ريب. والأجانب وخاصة أهالي افريقية الذين أغراهم ما كان ولا يزال يوجد من موارد في كل ميناء كبير.

إنه لم يكن لمجلس الشعب الذي لا نعرف دوره بالضبط إلا سلطة متفاوتة في الزمان، فهو الذي ينتخب القواد وكذلك "الشافطين" من دون شك ولم يكن له بعد ذلك غير دور الحكم إزاء ما كان يحدث من خلافات بين الشافطين ومجلس الشيوخ. وابتداء من القرن الثاني فقط أصبح يرجع إليه ويطلب رأيه أكثر من ذي قبل. ولا نعرف كذلك شيئا يذكر عن "الجمعيات" (Hétairies) التي كان أعضاؤها يتناولون أحيانا الطعام معا. وقد أراد بعضهم اعتبارها نوعا من النوادي، ورأى البعض الآخر أنها نوع من النقابات المهنية، ونظرها آخرون بالعشائر (Curies) الرومانية. ولا يوجد التباس من حيث الاتجاه في محاولات الإصلاح، وأهمها تلك المحاولة التي قام بها حنبعل غداة موقعة "جامة" ولكن لا يمكن ضبط مداها من الناحية العملية. وفي الجملة فإنه يبدو أن الدور الذي كان يلعبه من الناحية القانونية شعب قرطاج ظل دائما متواضعا.

إلا أن تطور المؤسسات في اتجاه ديمقراطي يسمح بالاعتقاد بأن الشعب أو على الأقل بعض عناصره كان حريصا على تغيير وجهها من الخارج. ويظهر أن الفتن كانت كثيرة نسبيا، ولكنها لم تسفر مع ذلك عن ثورات. فلم تلق محاولات الاستبداد بالحكم -كتلك التي قام بها حنون الأكبر في أواسط القرن الرابع- التأييد الشعبي الذي كان من شأنه

أن يضمن لها النجاح. وإذا أمكن -إذن- الحديث عن "تزايد نفوذ الشعب" فإنه يجب أن نلاحظ أيضا أن هذا التزايد لم يبلغ من القوة بحيث يقضي على رسوخ نظام حكم الأقلية في المدينة.

9 - جيش من المرتزقة:

إن أية دولة، ولو كان أفرادها تجارا، لا يمكنها الاستغناء عن قوة مسلحة، إما لمعاضدة توسعها الاستعماري أو لقمع الثورات. ولكنها تحذر من القواد الذين يضيقون ذرعا بإشراف رجال الأعمال عليهم، ويميلون إلى قلب نظام الحكم. فقد أثار قواد قرطاج في القرن الرابع خاصة مخاوف الحكومة. فضربت مرات عديدة على أيدي قواد عسكريين استرابت بعض أعمالهم الجريئة، أو صلبت من اتهمتهم بالسعي إلى الاستبداد بالحكم.

وكانت الحصون التي تحوط المدينة تضعها في مأمن من الغارات. كما أن أسطولها الحربي يضمن لها السيطرة على البحار والتزود بانتظام. وكان معظم الجدافين المشهورين بمهارتهم في العمل من بين المواطنين. وكان لها في أول الأمر جيش وطني. ثم بعد ذلك دخل بعض الأغنياء البونيقيين في الخيالة ولكنها انتدبت المرتزقة منذ القرن الرابع. فقد حارب إلى جانبها في معركة هيمير(480) ليبيون واسبانيون وليغوريون وسردانيون وكرسيكيون. ثم أضافت إلى جيوشها شيئا فشيئا رجالا مسلحين بالمقاليع جندتهم من جزر البلجار والسلتيين والسمنيين والبروتيين. واستمدت في القرن الثالث معظم جنودها من افريقية فجندت بالقوة العبيد الليبيين العاملين في أراضيها، وأسندت إلى الأمراء الأهليين قيادة الخيالة النوميدية التي سجلت لها أبهر انتصاراتها بفضل حملاتها الفجائية وكمائنها وبراعتها في الاهتداء إلى معاقل العدو. ولم يكن الجيش المتكون من المرتزقة منقادا دائما. وهيبة حنبعل هي وحدها التي وضعت حدا لهروبهم، وكثيرا ما كانت تحدث الثورات في صفوف هذا الجيش. أو يعتمد عليه من يشق عصا الطاعة من بين القواد.

واصطادت قرطاج في جبال الأطلس الفيلة المتوحشة التي كان يروضها للحرب فيالة هنود. ولقد وصف لنا "بلين" طرق صيدها ولاحظ "سترابن" أنه وقع بناء اصطبلات لها قريبا من أسوار المدينة. وقد كانت الفيلة الليبية ابتداء من أواخر القرن الرابع بمثابة الدبابات؛ وهي أصغر قامة وأقل إقداما من الفيلة الهندية. وكانت تدخل الرعب في قلوب الرومان حتى أن شيبيون الأميلي بالغ في موقعة جامة في وسائل الاحتياط من

هجماتها غير أنها لم تكن سهلة الانقياد فهي تغدر بأصحابها في بعض الأحيان فيضطر هؤلاء إلى قتلها.

10 - نظام جبائي صارم:

كانت الدولة القرطاجية تعتمد لمواجهة المصاريف العامة على حاصل المعاليم القمرقية وأتاوى الليبيين والضرائب الموظفة على المدن. وفي القرنين الثالث والثاني لم تنافس قرطاج في الثروة إلا الإسكندرية وحدها. إلا أن هذا الازدهار المالي المتأتي عن التجارة خاصة لم يقدر على الصمود أمام الأزمات التي كانت تعرقله. فاضطر القوم بعد الحرب البونيقية الأولى التي تعذر معها جمع الموارد القمرقية إلى حجز نصف محصول المزارعين وإلى مضاعفة الأداءات المضروبة على المدن. ولم يخل ذلك من عنف بطبيعة الحال.

11 - مدينة تجار:

لقد كان البونيقيون رجال أعمال همهم الوحيد الأرباح المادية. وقد كانوا يحسنون لغات كثيرة بحكم الضرورة من غير أن يتظاهروا بذلك في بعض الأحيان. ولم يتركوا أثر يذكر في الأدب والتاريخ والعلم. واقتصروا في ميدان الفن على تقليد النماذج المصرية والإغريقية إن لم يجلبوا فنانين أجانب. فبويبتوس القرطاجي (Boéthos le Carthaginois) النحات الذي أنجز تمثال "ايفيز" إغريقي النسب، قرطاجي المولد على أغلب الظن. وذلك على الرغم من أن البونقيين كانوا أذكياء. ويعلل "قوتيه" ذلك في إطناب فيقول: إن عقليتهم الشرقية تخالف اختلافا جذريا عقلية الغربيين.

12 - عادات شرقية:

كان القرطاجيون يتكلمون لغة فينيقية محرفة إلى حد ما. ولسنا نعرف عنها إلا بعض النقوش وخاصة الجمل الموجودة في كتاب بونيلوس لبلوط (Plaute) وكانت لهم موازين ومقاييس ورزنامة وأقبية للموتى شبيهة بالآبار الفينيقية الأصل. وكان لباسهم شرقيا بحتا فكانوا يرتدون الجبة الطويلة ذات الأكمام الواسعة عامة، وكانوا يضعون على رؤوسهم القلنسوة ويلبسون معطف السفر. وقد وجد قوتيه شبها بينها وبين "الكدرون" والطربوش والبرنس التي يلبسها المغاربة في عصورنا هذه وكانت عاداتهم شرقية أيضا، وكانت نساؤهم يكثرون من التزين بالحلي واستعمال ألوان التجميل

ويبالغن في التعطر. وظل الرجال والنساء مدة طويلة يضعون خرصانا في أنوفهم. ويظهر أن الفينيقيين عدلوا عن الختان في الأرض الإفريقية. وتشهد الاكتشافات الأثرية أنهم لم يعددوا زوجاتهم واستمروا بالعكس يسجدون أمام العظماء ويحجمون عن أكل لحم الخنزير. أما فيما يتعلق بوحشيتهم وخداعهم فإن الغربيين، وخاصة الرومان لم يتركوا لهم مجالا للتفوق عليهم.

13 - دين شرقي:

إن تأثير الشرق تجلى بالخصوص في الدين الذي جاء به المعمرون الفينيقيون. فقد أخذت قرطاج عن صور آلهتها وكانت تخشاها أكثر مما تحبها. إلا أنه يجب ألا ننسى - كما يفعل البعض أحيانا- أن غايات العقيدة ومظاهرها تخضع لمؤثرات المكان والزمان معا. فعندما انقلبت الديانة الفينيقية إلى افريقية طرأت عليها تغيرات حتمية ولم تبق الديانة القرطاجية، منذ أن اكتملت، هي حتى انهيار قرطاج ومن ذلك أن معنى الثلاثية الذي يكشف عنه "قسم حنبعل المشهور" في صيغته التي وصلتنا (بوليب 2,3,9,7) وليس إلا كسبا حديثا للهيكل البونيقي على ما يظهر.

لقد كان القرطاجيون يعبدون آلهة متعددة كما كان الشأن بالنسبة لمجموع الأمم القديمة. فملقرط "ملك المدينة " الذي شبه بهرقليس كانت له مكانته في قرطاج، وكذلك بقية المراكز التي أسستها صور، وأشمون أو أدونيس الذي شبه بأسكلبيوس شيد له معبد على هضبة المدينة كما هو الشأن بالنسبة لملقرط إله التجديد. وتفيدنا النقوش أن "عشتروت" و"بعل حداد" و"رشف" وآلهة أخرى كانت لها من يعبدها أيضا.

ولكن الإله الكبير لقرطاج كان بعل حمون بلا منازع وقد شبه ب"كرونوس" أو "زوس"(Zens) وقال "ر.دوسو" عنه: "إنه يمثل اندماج الإله الفينيقي" أل" بإله أهلي. وقد شبه بعضهم اسمه باسم الإله المصري آمون عن خطإ فيما يظهر. بل يحسن أن نؤول معنى الكلمة على أنه "سيد الأنصاب" (حماميم). وإذا كان هو المشخص على نصب بسوسة فإنه يبدو ملتحيا مرتديا جبة طويلة، على رأسه تاج أسطواني، وبيده رمح وهو جالس على عرش يمثل كلا جانبيه أبا الهول وما من شك في أنه كان على غرار "أل" ذاته، الإله الأعظم، مالك القوى السماوية الأقدر.

وفي كثير من الأحيان لا جميعها نجد على الحجرات النذرية إلى جانب بعل حمون إلاهة مساعدة تسمى تانيت بينيبعل (أي وجه بعل) لا تزال شخصيتها غامضة. وقد يكون مثل بعل حمون نفسه مزيجا من إلاه بربري وإلاه فينيقي. وتقابل في الأصل اللات

التي عرفت هي نفسها "بعشترت" (Ashérat) وقامت مقامها في العهد الروماني يونيو (Junon) وسيلستيس (Caelelestis) اللتان كانتا مندمجتين غالبا. وكان القرطاجيون يضفون على آلهتهم الصورة البشرية، وتشهد بذلك على الأقل الأنصاب المكتشفة في سوسة شهادة قطعية. ولكنهم ظلوا متأثرين بصورة مشوهة منذ غابر التاريخ، حيث كانت تعتبر الحجارة مأوى الآلهة إن لم تعتبر هي نفسها الآلهة. وبقوا يعبدون الأوثان حسب الطقوس المألوفة وكانوا يدهنونها بالزيت. ونجد في غالب الأحيان كما بين ذلك "سينتاس" الآلهة منقوشة في هذا الشكل على الأنصاب مشوهة، مقتضبة، إلا أنه يمكن للناظر أن يتعرف إلى مظهر الآلهة العتيق سواء كانت على العرش أم لا. وما يسمى خطأ بعلامة تانيت هو أحد الرموز الإلهية الكثيرة مثل القرص والهلال والرمانة وغيرها. وهو عبارة عن مثلث أو شبه منحرف قد علاه خط أفقي معقف الطرفين في بعض الأحيان وأسطوانة منحرفة الشكل أحيانا. وقد تقدم الباحثون بتعليلات عديدة يدل تباينها دلالة واضحة على تهافتها. وقيمتها الرمزية هي وحدها التي لا توضع موضع الشك.

وقد ألقت الحفريات الحديثة بعض الأضواء على المعابد القرطاجية. ونعرف اليوم معرفة تامة على الأقل معبدين: أحدهما في قرطاج والثاني في سوسة. ويوجد معبد قرطاج على شاطئ صلامبو. وكان في أول الأمر بناية متواضعة مسيجة تذكرك بمثالها المعقد وجدرانها القصيرة، ببعض المعابد الموجودة في راس شمرا (Shamra). وعند تأسيس قرطاج حافظ هذا المكان على قداسته، وتكدست فوقه طبقات متتالية من الأنصاب والآنية المحتوية على عظام الأطفال المقدمين قرابين للآلهة. أما معبد سوسة الذي نجهل شكله الأول فإننا نجد فيه نفس الطبقات المتتالية من الأنصاب والأجاجين. وأقدمها عثر عليه في مصاطب صغيرة يرجع تاريخها إلى القرن السادس أو السابع ويرجع تاريخ أحدثها إلى القرن الأول أو الثاني بعد المسيح إلا أنه يحسن أن نلاحظ أن هذين المعبدين لا يعطيان صورة قيمة لجميع المعابد القرطاجية. فقد كان بعضها موجودا في أماكن مرتفعة لا على شاطئ البحر كما هو الشأن بالنسبة للمعبدين المذكورين. وليست جميع المعابد أيضا وبالخصوص متكونة من ساحة مسيجة ذات هندسة تتفاوت بساطة. والنصوص تدل على أن معبد أشمون أو معبد تانيت كانا هيكلين عظيمين فسيحي الأرجاء في بعض الأحيان، وأكبر الظن أنهما ينتسبان إلى أصل هيليني.

وكان الكهنوت منظما تنظيما محكما ومتمتعا بهيبة كبيرة. وكان واجب الكهنة الأول هو إقامة الطقوس الدينية برعاية حكام ينوبون عن الدولة. ولعلهم كانوا يشرفون

يوميا على مراسم دينية لابسين زيا كهنوتيا خاصا بهم. ويستعينون بعدة أعوان يقومون على المعابد. وكان القرطاجيون على غرار شعوب كثيرة يحتفلون بالبغاء المقدس الذي من شأنه أن يضمن في اعتقادهم خصب الأرض والماشية والبشر.

إننا لا نعرف بالضبط كيف كانت تجرى الحفلات الدينية. وجداول القرابين التي عثر عليها في مرسيليا وقرطاج تؤلف قانونا كهنوتيا لا يخلو من شبه كبير بسفر الأحبار اللاويين. ففي كليهما نجد أنواعا ثلاثة من القرابين: فمنها ما يحرق ومنها ما يكون مجرد هدية، ومنها ما يكون كفارة. ونجد تعدادا للضحايا من البقر والغنم والطيور، وتعدادا لهدايا من الزهور والخبز أما جلد الضحية فكان يهدى إلى القس. ولا شك أن الطقوس اليهودية والقرطاجية ترجع إلى أصل واحد هو الأصل الكنعاني.

وكان القرطاجيون يقدمون الضحايا البشرية. فقد ذبح أحد القواد المنتصرين في صقلية ثلاثة آلاف من أعدائه قربانا في المكان الذي قتل فيه جده. وكانوا يقدمون كل سنة على الأقل طفلين ذكرين قربانا. وذلك تحت إشراف الدولة. إلا أن عدد الضحايا كان يبلغ المئات في حالات الفزع، كما كان الأمر عندما أغار عليهم أغاثوكل. إنه كان في وسع العائلات بدون شك أن تقدم جزءا من عجل عوض أطفالها. وغالبا ما كان تفعل ذلك. ولكن يروى أن المؤمنين الأتقياء كانوا لا يترددون في تقديم أبنائهم على مذبح الآلهة. أما الأغنياء ذوو العقلية الواقعية فقد كانوا يقدمون للآلهة صغار الرقيق أو كانوا يشترون أبناء الفقراء يستعيضون بهم عن أبنائهم. وإذا صح هذا كما رواه بلوتارك (Plutarque) فإنه يلقي أضواء قاتمة على النفسية البونيقية.

وبعل حمون هو الذي كان يبتلع الأطفال في جوفه المتقد نارا. ونحن نعلم كيف استغل الكاتب "فلوبار" هذه الحفلة الدموية وقد عبر عن ذلك بقوله: "وكانت حركة اليدين الفلزيتين في تزايد. وأصبح لا سبيل إلى توقفهما. فما تكاد تصل الضحايا على حافة الفتحة حتى تزول كما تتبخر قطرة الماء من على صفيحة محمرة نارا فيتصاعد دخان أبيض في الحمرة القانية".

ورغم ذلك فإن شاهية الإله لا تسكن. إنه يطلب دائما المزيد. فكان القوم يكدسون على يديه الضحايا ويربطونها بسلسة تشدها حرصا منهم على تزويده بأكثر مما يجب.

إن روعة هذا الوصف قد تكون أضرت بالحقيقة التاريخية. فبالرغم عن الشهادات القديمة استنكف العلماء من التسليم بهذه المراسم المريعة.

ولا سبيل اليوم إلى شك في صحتها. فقد اكتشفت حديثا في صلامبو وسوسة

"طفايات" أو توفات (Taphet) أي مواضع إحراق الضحايا. وبات من اليقين أن الأجاجين تحتوي على عظام بشرية محروقة. وتفضي دراسة النقوش إلى نتائج مماثلة لا تقل وضوحا عن الأخرى. ولكنها تمكننا من أن نسجل أيضا أن رغبات بعل حمون أصبحت في الفترات الأخيرة من تاريخ قرطاج دون ما كانت عليه قسوة. فقد حل محل التضحية الفعلية بالطفل البكر غالبا التضحية المعروفة ب"ملكومور" أي أن الحيوان ويكون غالبا خروفا عوض الضحية البشرية. وقبل بعل هذه المعاوضة حسب العبارة المنقوشة في الأنصاب الرومانية ب"نقاوس" (N'gaous) روح بروح ودم بدم وحياة بحياة.

14 - الطقوس الجنائزية:

تدل الحفريات على أن الطقوس الجنائزية كانت مختلفة بحسب العصور وبحسب الطبقات الاجتماعية. لقد ظل الدفن معمولا به مدة طويلة، ولكن عادة إحراق الموتى التي لم تكن مجهولة من القرطاجيين انتشرت في القرن الرابع تحت تأثير اليونان ثم فرضت نفسها في آخر الأمر. وكانت أقدم القبور عبارة عن غرف فسيحة الأرجاء سد مدخلها بصفيحة من الحجارة وبنيت أو نقرت في الصخر في عمق يبلغ أمتارا كثيرة. وكانت الموتى توضع في توابيت من حجر أو تمدد على الأرض مباشرة. ثم ظهرت بعد ذلك القبور الشبيهة "بالآبار"، أي أن غرفة أو عدة غرف منضدة كانت تفتح على آبار يتجاوز عمقها أحيانا عشرين مترا تسد بعد كل دفن. ولم تكن في الأول لتسع أكثر من جثة أو جثتين ثم انتشرت عادة الدفن الجماعي، وأصبحت معمولا بها على الإطلاق عندما فرضت عادة الإحراق نفسها. وفي ذات الوقت نقصت أبعاد غرف الموتى، وأصبحت تبنى في حفر أقل عمقا. وفي آخر العصور البونيقية أصبحت الأقبية في نهاية الأمر شبيهة بالأضرحة التي ليس لها تحت الأرض سوى جزء واحد.

وكان يوجد مع الجثث المدفونة أثاث متركب خاصة من آنية خزفية، وأدوات عادية لتيسير حياتها المادية، وتمائم ذات مفعول سحري. ولا شك أن القرطاجيين كانوا يؤمنون مثل بقية الفينيقيين بمقام مشترك للأموات ربما يشبه في كآبته "الشول" العبري غير أن علم الآثار لا يسمح بتدقيق ما يعتقده القوم في مصير الموتى.

ولا شك أن "أوزيرس" و" ديميتر" و"فوريا" لقنتهم الأمل في حياة أخرى أبدية سعيدة. ولا يوجد أي أثر لتقديس الموتى، ولا شك أنهم يخشونهم أكثر مما يحترمونهم. فقد كانت ضرورات الحياة اليومية لا تترك للقرطاجيين المجال للتأمل مليا في شأن الموتى.

15 - المؤثرات الدينية الخارجية:

لقد خضعت الديانة البونيقية إلى موثرات خارجية. فقبور قرطاج احتوت على تمائم مصرية الأصل إن لم تكن مستوردة وذلك حتى القرن الرابع على الأقل. فالآلهة "ايزيس" و"هاتور" و"أوزيريس" و"انوبيس" وغيرها وكانت لها تماثيل بلورية يبلغ طولها سنتيمترا واحدا أو سنتيمترين اثنين وتنضد في قلائد كالجواهر. ومن جهة أخرى فإن تفاوت عدد هذا النوع من التمائم أو ذاك في القبور يدل على أن قوتها الوقائية لم تكن في معزل عن تأثيرات العادات الشائعة.

وسعى القرطاجيون في التكفير عن البلايا الناجمة، في اعتقادهم، عن نهب معبد ديميتير وكوري برسفونا بسرقوسة سنة 396 فأدخلوا في مدينتهم عبادة هاتين الآلهتين (سيريراس) وبقيت هذه العبادة قائمة حتى في العهد الروماني وعبدوا في صقلية "افروديت اريسين" التي كانت تغادر كل سنة جبل "اريكس" وتلتحق صحبة حمام المعبد بافريقية حيث تقيم تسعة أيام.

على كل فلا يجوز أن نقصر تأثير الشرق اليوناني في قرطاج ابتداء من القرن الرابع على الميدان الديني. ويوجد من الدلائل الأثرية ما يسمح لنا بان نؤكد أن المدينة البونيقية تغيرت تغيرا عميقا عند اتصالها بالمدينة الإغريقية.

ولكن المؤثرات الليبية كانت ابعد مدى من دون شك مما نلاحظه في الطقوس الجنائزية من طي الجثث وصبغها باللون الأحمر وخلط العظام بعد تجريدها من اللحم وقد اندمجت الآلهة الفينيقية مع الآلهة الإفريقية. ويذهب البعض إلى القول بان لفظ "تانيت" إفريقي. وقد عثر في معبد "صياغة" (في بئر بورقبة قرب خليج الحمامات) على آلهة لها رأس لبؤة جالسة على أسد كما عثر على أبي هول ذي ضروع. وحاول الباحثون توضيح دور هذه الآلهة بتأثير العبادات الليبية في أواخر قرطاج.

16 - إشعاع قرطاج:

إلى أي حد طبعت المدنية القرطاجية بطابعها المدن والبلدان التي فتحتها. إنها لم تترك في اسبانيا وجزر غربي البحر الأبيض المتوسط أثرا يذكر. كما أفسحت المجال في صقلية للمدينة الإغريقية ابتداء من القرن الخامس. لكنها تأصلت في جزر مالطة وغوزو وبانتالاريا ولمبادوزا وخاصة سردانية. فما مدى تأثيرها في إفريقيا الشمالية ؟

يجب قبل كل شيء أن نؤكد أن قرطاج لم تحتل بلاد المغرب بأكمله. وأن نفوذها

عندما بلغت أوجها لم يتجاوز حدود البلاد التونسية الحالية باستثناء المدن الموجودة على السواحل الجزائرية والمغربية. إلا أن عملها لم ينحصر في حدود البلدان التابعة لنفوذها السياسي وحدها. فالليبيون المنخرطون في الجيوش القرطاجية كانوا يحملون معهم عند الرجوع إلى أوطانهم شيئا من المدنية القرطاجية التي عاشوا في ظلها. ولم يحمل التجار البونيقيون معهم البضاعة التي اشتروها فقط. بل حملوا كذلك جملة من العادات والصناعات والأفكار والمعتقدات استساغها الأهالي شيئا فشيئا وأثروا بها مدنياتهم البدائية.

وقد كان تأثير المدنية البونيقية بطبيعة الحال في بلاد البربر الشرقية. فقد بهرت الأمراء النومديين الذين أقام العدد الكبير منهم في قرطاج. وتزوجوا بنات طبقتها النبيلة وسموا أبناءهم بأسماء قرطاجية. ومنحوا مدنهم دساتير منسوخة عن دساتير المستعمرات الساحلية. وعبدوا الآلهة السامية وحرضوا رعاياهم على العمل بأساليب ماغون الفلاحية.

واستعان الملوك وكبار القوم بفنيين من قرطاج. وقد شيد أحد هؤلاء حوالي منتصف القرن الثاني قبل المسيح ضريح ضريح دقة حيث توجد في نفس الوقت نماذج شرقية وإغريقية عتيقة هي من خصائص الفن البونيقي. ويحتوي هذا الضريح المبنى بالحجارة المنحوتة على ثلاثة طوابق على مدارج وهو جميل الزخرفة . إلا أن تماثلية متوسطة القيمة. وتمكن " ل. بوانسوا" سنة 1910 من وضع الحجارة المنهارة في مواضعها الأصلية باستثناء حجارتين تحملان نصا واحدا مكتوبا باللغة الليبية والبونيقية أخذهما القنصل "ريد" (Reed) معه إلى انقلترا في سنة 1842 ولا يزال موضعهما من الهيكل مجهولا. وفي هذه الكتابات حجة على أن الارستقراطية البربرية كانت تستعمل اللغة البونيقية في النقوش الحجرية. وأحيانا تنافس بها اللغة الليبية. وتذكر هذه الكتابات أسماء لبناة وعلى رأسهم المسمى "عبريش" الذي كان قرطاجيا من دون شك كما تذكر أسماء أعوانهم (؟) وأسماء النجارين والحدادين.

وبدهي أن تأثير قرطاج لم يزل بزوالها. فالمدينة الرومانية لم تتوطد أركانها من أول وهلة لا في الممتلكات البونيقية القديمة ولا في الممالك البربرية. ولا نعرف من سوء الحظ شيئا يستحق الذكر عن أطوار المنافسات التي تواصلت بين المدنيتين.

والذي لا شك فيه هو أن قرطاج تركت آثارا عميقة في افريقية من حيث الدين. فالآلهة البونيقية اضطرت إلى ارتداء الحلة الرومانية على غرار عبادها. ولكنها رغم

أسمائها الرومانية وشكل العبادات الروماني استبقت روحها الأصلية. فليس في تضحية "ملكومور" شيء من اللاطين. وبقي بعل الذي سمي "ستورنوس" "متعاليا على البشر علوا كبيرا". وليس من المستبعد كما لاحظ ذلك "س.قزال" أن يكون اعتقاد القوم في علو هذا الإله على بقية الآلهة هيأ العقول إلى التوحيد الذي سيأتي به دين المسيح إلى افريقية.

وبقيت نقود بعض المدن الإفريقية تحمل كتابات بونيقية إلى عهد تيبريوس. وما انفك زمام الحكم في بعض تلك المدن بيد الشافطين حتى عهد أنطونيوس (Antonins) التقي. ولكن يبدو أن اللغة البونيقية لم تبق مستعملة حتى العصر البيزنطي كما يعتقد أكثر الناس اعتمادا على نصوص القديس أغسطينوس و"بروكوب" التي أسيء تأويلها. ولا سند متينا لرأي أ.رينان الذي تبناه "قزال" القائل بأن بقاء اللغة البونيقية مهد إلى انتشار اللغة العربية - فقد انتهى استعمال اللغة البونيقية في تواريخ اختلفت طبعا باختلاف الجهات، ولكنها لا تتجاوز في أغلب الظن آخر القرن الثاني وأول القرن الثالث بعد المسيح.

إن آثار المدنية البونيقية -وإن هي لم تدم طويلا كما تصوره البعض- فقد بقيت جذورها عميقة. واندمجت بلاد البربر بواسطة قرطاج في عالم البحر المتوسط وتعرفت بفضلها إلى مدنية شرقية سرعان ما راضتها الحضارة اليونانية. وسوف لا تكون هذه المرة الأخيرة التي تصبح فيها أفريقيا الشمالية تابعة للشرق إلا أن انتصار رومة عليها سوف ينتزعها من نفوذ الشرق طيلة قرون عديدة.

الباب الخامس

الممالك البربرية

1 - مسينيسا اغليد عظيم

2 - الحرب البونيقية الثالثة ونهاية قرطاج

3 - الاحتلال الروماني

I - مسنيسا "اغليد" عظيم :

1 - الممالك البربرية الثلاث في القرن الثالث:

لم يهتم قدماء الكتاب بتاريخ شؤون الممالك البربرية الداخلية إلا عندما ظهر لهم أن له مساسا برومة أو قرطاج. فلم يبق أثر للتقاليد البربرية. لذا فإنه يخشى أن نبقى على جهلنا بما تعاقب من الفتن ومن انتصارات القبائل وانقراضها وانبعاث الدول المتحدة برابطة الحلف وانهيارها إلى أن أفضت الأحداث إلى تأسيس الممالك البربرية الثلاث التي اقتسمت بلاد المغرب في عصر الحروب البونيقية.

فلقد تأسست شمال المغرب الأقصى قبل القرن الرابع جامعة عتيدة من القبائل هي مملكة الموريين أو مملكة موريطانيا تحدها جنوبا بلاد جدالة التي تتاخمها جنوبا مملكتا ماسولة ومازيسولة والأراضي البونيقية. ويحدها شرقا نهر الملوشة (الملوية) السفلى. ولقد اتسعت رقعة هذه المملكة في أواخر القرن الثالث وأثناء القرن الأول إلى أن بلغت مصب نهر المساقة (الواد الكبير في الشمال الغربي من قسنطينة). ونقود القرن الأول قبل المسيح شاهدة بان الموريين كانوا يزرعون القمح .

وكانت مملكتا ماسولة ومازيسولة تقتسمان في القرن الثالث بين الملوية والأرض البونيقية البلاد الآهلة بالبربر الذين كان يسميهم الرومان والإغريق النوميديين وهي لفظة قد تكون مأخوذة عن لهجة البلاد نفسها. ومن الممكن أن تكون قبائل مازيسولة التي هي بمثابة الخلية الأم للجامعة منحدرة من المغرب الأقصى وقبيلة ماسولة من الأوراس حيث أقام ملك مجهول بالقرب منها "المدراسن" وهو ضريح ضخم يرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث على سبيل التقريب.

2 - مملكة مازيسولة - سيفاكس:

كانت دولة مازيسولة يحدها شرقا إما رأس تريتون (رأس بوقرعون شمال قسنطينة) أو بالأحرى المساقة. وكانت سيرتة (قسنطينة) قسما من هذه المملكة، على الأقل في عهد سيفاكس. وكانت مع صاغة التي تقع على بعد 90 كلم من الملوية شرقا تعد إحدى العاصمتين الملكيتين وكان لها ميزات ستراتيجية نادرة الوجود.

وهذه المدينة الجاثمة على نجد صخري والمحاطة بمنحدرات وعرة، يتجاوز علوها 100 متر ويجري من تحتها نهر المساقة (الرمل) في خور جوانبه وعرة أيضا. وكانت لا تدرك إلا عن طريق برزخ الجنوب الغربي، وتبقى بالفعل منيعة لا تنال، ما غذت الأمطار الفساقي المحفورة في الصخور.

وكان القسم المجاور لموريطانيا صالحا لزراعة الحبوب. وقد ذهب "سترابن" إلى الجزم بأنها أخصب من نوميديا الشرقية، وأن سوق سنابل القمح البالغ حجمها حجم الخنصر يتجاوز طولها مترين، وأن أهلها كانوا يتحصلون على صابتين من دون أن يبذلوا جهدا يذكر في العناية بالأرض ويظفرون بإنتاج يقدر ب240 مقابل واحد. ويخشى أن تكون معلومات هذا الجغرافي غير صحيحة تمام الصحة.

وقد قام سيفاكس، وهو أعظم اغليد في مازيسولة، بدور عظيم. فمدت إليه قرطاج يدها تطلبه المعونة وزوجته فتاة من أعلى طبقة أرستقراطية، وفي الوقت الذي ظهر فيه خصمه مسينسا على أبواب الهلاك عمت سلطته بلاد الجزائر كلها وكان يقلد في حياته ملوك اليونان وتوهم أن مصير بلاد البربر سيكون بيده.

لكن سلطانه انهار دفعة واحدة سنة 203 ولسنا نعرف هل أن ابنه "فرمينا" الذي كان يشارك أباه في الحكم أمكن له أن يظفر بفتات من هذه المملكة جهة الغرب. وعلى كل فإن مسينسا لم يلبث أن ضم إليه مازيسولة كلها.

3 - مملكة ماسولة ومسينسا:

وكانت مملكة ماسولة وهي أقل مساحة تشمل القسم الشرقي من مقاطعة قسنطينة. ولقد تقلصت حدودها أمام التوسع القرطاجي.

وكان لها أيام الحرب البونيقية الثانية اغليد اسمه "غايا" ولسنا نعرف هل أن "نارافاس" القائد النوميدي العظيم كان من الأسرة المالكة أم لا، وهو الذي اشترى عبد ملقرط البرقي ذمته ووعده بتزويجه ابنته مقابل تدخله الحاسم ضد المرتزقة.

وتطبيقا لقوانين الوراثة "الأغنية" لم ترجع مملكة "غايا" إلى ابنه الأكبر مسينسا بل ورثها أخوه ثم ابن أخيه. وعندما غزا سيفاكس بلاد ماسولة لم يسع مسينسا إلا أن يحيا حياة المنفي غير أنه كان رجلا من طينة خارقة للعادة. فلقد ربط مصيره بشيبيون وبقضية رومة فشاركهما في انتصارهما. وكان من أثر دخوله كالصاعقة لسيرتة (203) أن وضع حدا لمملكة مازيسولة وكان ذلك بدءا لسلطانه. وسرعان ما أصبح سيدا على

جميع البلدان الواقعة بين موريطانيا والمقاطعة البونيقية من الملوية إلى توسكة (قرب طبرقة)

كان اغليدا عظيما صهر شعبه بيديه القويتين وحاول أن يجعل من بلاد البربر دولة موحدة مستقلة. ولم يتح لبلاد المغرب قط ما أتيح لها في عهده من توفيق في طريق قيام أمة حرة ماسكة بزمام حضارتها الذاتية اللهم إلا إذا استثنينا فترة انتصار صنهاجة. ولئن حال الاستعمار الروماني دون أن يبلغ القائد البربري هدفه الذي ظن أنه لا محالة بالغه فإن محاولته أظهرت على الأقل أنه عاهل ذو صفات ممتازة.

4 - استقرار النوميديين وتمدينهم:

كثيرا ما يورد الباحثون قول "سترابن" من أن مسنيسا صير البربر فلاحين ومدنهم. تلك هي نفس النتائج المترابطة لسياسة معنية. فلقد أراد الاغليد أن يكون عاهلا لا سيد قبيلة.

وكان لا بد له من ميزانية تغذيها موارد قارة للاحتفاظ بوفاء حلفائه، والحد من سورة أعدائه، ولتجهيز جيوشه وتكوين أساطيله، ولبناء دولة نوميدية بالديبلوماسية وبحد السلاح تكون جديرة بهذا الاسم قادرة على أن تقوم بدورها في حوض البحر المتوسط.

وإذا كان من الممكن استخلاص الضرائب من جماعات البدو المتفاوتة العدد سواء بالمباغتة أو بالقوة فإنه ما كان لأي اغليد أن يتنبأ ولو على سبيل التقريب بما سيجلبه له حماس "الحركة" من موارد. فالبدوي من حيث دفع الأداءات من أسوإ الرعايا. أما الحضري فهو على العكس من ذلك خير من يحلم به حاكم. فإذا زرع أمل حصاد ما يسميه الأخلاقيون ثمرة عرق جبينه في طمأنينة، ولذا فهو يطلب الحماية ويدفع ثمنها غاليا. وإذا بالغ أسياده في استغلاله رضي بمواصلة عمله أو شق عصا الطاعة أحيانا. ومنتهى عبقرية الحاكم تتجلى في الاهتداء إلى الحل الوسط الذي يمكن معه استخلاص أقصى ما يمكن من الضرائب من دون التعرض إلى خسارة الكل.

والغاية القصوى قد تتمثل في القدرة على إحياء البدوي وهو مادة جبائية ميتة وذلك بجعله حضريا وليس ذلك بالعمل الهين. ولم يكن ليتصدى له مسنيسا ولينجز جانبا منه لو لم يتمتع في نفس الوقت بهيبة كبيرة وعزيمة فولاذية.

وكان تعاطي الفلاحة قبل ذلك محدودا. قال بوليب: "هذا أعظم وأعجب ما قام به مسنيسا. كانت نوميديا قبله لا فائدة ترجى منها وكانت تعتبر بحكم طبيعتها قاحلة

لا تنتج شيئا. فهو الأول والوحيد الذي أبان بالكاشف أنه بإمكانها أن تدر بجميع الخيرات مثل أية مقاطعة أخرى لأنه أحيا أراضي شاسعة فأخصبت إخصابا" (نقل ستيفان قزال). وإنها لشهادة بليغة تقيم الدليل -إذا أضفنا إليها شهادة "سترابن"- على أنه هو المسؤول الأول عن الانقلاب الاقتصادي الواقع بالمغرب الأوسط. وكان من الواجب من دون شك إقرار القبائل بتمليكهم الأراضي وحمايتهم من غزوات البدو ولا ريب أن أكثريتها اضطرت إلى أن تحيا حياة الرعاة وحياة الفلاحين في آن واحد لأن إحياء هذه الأراضي كان يتطلب وقتا طويلا وجهدا كبيرا. وقد كان النوميديون يزرعون القمح والشعير مثل البونيقيين.

إن مسنيسا شجع إحياء الأراضي بما هيأ بصورة غامضة -كما قال ستيفان قزال- ازدهار افريقية الرومانية. ولعله جعل من الأراضي التي أفتكها من البونيقيين ملكا خاصا به استغله لنفسه. فلم يستنكف من أن يكون مثلا يحتذى. قال ديودرس الصقلي: "لقد برع في الأشغال الفلاحية حتى أنه ترك لكل واحد من أبنائه 10000 (874 Pléthre) هكتارا) مجهزة بكل الآلات اللازمة للاستغلال". ويكون لهذا المدح قيمته الخاصة إذا نحن ذكرنا له 44 ولدا وربما 54.

ولم يتوزع الفلاحون الجدد على الضيعات اجتنابا للمفاجآت بل تجمعوا في قرى محصنة. وبذلك ساهم مسنيسا في "تمدين" "البربر" "فأصبح النوميديون مدنيين" كما لاحظه سترابن. واستوحى من دساتير المدن الساحلية ما مكنه من منح المدن الجديدة نظاما بونيقيا يعتمد على حكام سموا الأسباط أو الأشفاط (Suffètes).

ولم يكن استقرار النوميديين وتمدينهم ليعطيا شكلا جديدا للعداء القائم طيلة تاريخ بلاد البربر كله بين البدو والحضر. كما بين ذلك أ-م- قوتييه - إلا أنهما غذياه على أقل تقدير. وفي عهد مسنيسا وخلفائه ظلت قبائل جدالة التي كانت تنتجع على طول سباسب السهول العليا بالمرصاد لهذه الفريسة الجاثمة التي تتمثل في الفلاحين النوميديين. وسوف يضطر "الاغاليد" وهم أسياد المدن ورؤساء دول بأتم معنى الكلمة إلى حماية ما شيدوه من غائلة القبائل المتنقلة التي إن انتصرت أرجعت رعايا هؤلاء الاغاليد إلى الفوضى.

5 - أعياد آلهة الحبوب (Cerères):

كل مدنية تعبر عن مطامحها بواسطة الدين. فلا بد أن يكون للفلاحين آلهة فلاحية. وكان مسنيسا هو الذي تولى أيضا حمل النوميديين على عبادة آلهة يونانية: سيريرس

(Cerères) وقورية وديميتير. فبعد أن أصلح "كركوبينو" في جرأة نصا من نصوص "سالوسطس" وعوض عبارة "اليوم الثالث" (in diem tertium) "بعبارة ليوم سيرير" (in diem cererum) بين -وله الفضل في الإصداع بهذا الافتراض- كيف أن دين الطبيعيين الذي كانت له أطوار بدائية ولكنها رمزية، والمتأثر بالمراسم التي كانت تقام في سرقوسة على شرف الآلهة سيريس أو ديميتير كان يمارسه في عصر يوغرطة بافريقية كلها (Per omnem Africain) النوميديون الحضر. وهكذا يظهر أن مسنيسا أضفى على معتقدات البربر مسحة أسمى وأقرب إلى المدنية كما قد يقول "سترابن" وذلك من دون أن يصادم ميولهم.

6 - مسنيسا اغليد وإله:

سعى مسنيسا في أن يكون عاهلا بأتم معنى الكلمة وربما في أن يظهر في مظهر إلاه. وعلى كل فإن عبادة إلاه الملك ظهرت وتركزت في عهده. فبعد مرور عشر سنوات من وفاته أقيم له معبد في توقه (دقة) وكان ضرب قبل ذلك نقودا تصوره وعلى رأسه تاج وإكليل من الغار. وكان له جيش وأسطول. ولذلك لم تستنكف رومة من الاستعانة في الشرق بالنوميديين وفيلتهم. وكان قد جمل عاصمته "سيرته" وبنى فيها قصرا يقتبل فيه الأجانب وخاصة الموسيقيين الإغريق وهذا "الدالي" الذي كان يعتبر نفسه صديقه وأقام له تمثالا في جزيرته مسقط رأسه. وحرص مسنيسا على أن يتلقى أبناؤه تربية يونانية فغنم أحدهم وهو مستنبعل غنما كبيرا وتوج آخر في العيد الذي يقيمه الإغريق للآلهة "أتينا".

وسعى مسنيسا في أن يكون الملك في ولده فعوض القاعدة "الأغنية" بقانون يضمن الخلافة لأكبر الأبناء مثلما هو الشأن بالنسبة للممالك اليونانية. وقد أخفق في ذلك لأن الاستعمار الروماني -وكان يمثله حينذاك "شيبيون الايميلي"- عمد إلى تجزئة تلك المملكة وقد ظهرت في حكم الاغليد العظيم في مظهر الجلال والهيبة.

وأكد "تيت ليف" أنه كان يصرح فيما يتعلق بالأجانب سواء كانوا فينيقيين أو رومانيين أن افريقية يجب أن تكون للإفريقيين. وهي نظرية كان من شأنها أن تسحر رعاياه البربر الميالين بطبعهم إلى كره الأجانب. وكان لا بد لتجسيم هذه النظرية من الاستيلاء على الأراضي البونيقية وخاصة قرطاج عاصمة بلاد البربر. وكان من الممكن أن يكون ذلك تتويجا للصرح الشامخ الذي بناه حجرة حجرة. وبما أنه كان سيد البلاد الواقعة بين الملوية وسيرته الصغرى والكبرى كان يستطيع أن يخضع بسهولة موريطانيا وأن يدفع

بلاد البربر كلها إلى طريق الوحدة القومية. وأنه لجدير بالاغليد الذي أظهر مقدرة فائقة في مهمة شاقة كحمل البربر على الاستقرار أن تظهر كذلك مقدرته بدون شك في القيام بأعمال جليلة لو أنه كان على رأس إمبراطورية.

وحتى في الحدود التي أرغم على ألا يتخطاها فإن الحماس الذي بثه في جهاز الحكم الملكي لم ينطفِ بعده. ويعترف "ستيفان قزال" بأنه يمكن القول: "إن نوميديا خطت تحت سلطة ملوكها من القرن الثاني إلى منتصف القرن الأول خطوات شاسعة لم تخطها وهي مقاطعة خاضعة للجمهورية". ولم تحطم رومة آمال مسنيسا العراض إلا لأنها كانت تخشى أن تتكون دولة بربرية جبارة. ولما مات مسنيسا سنة 148 وقد أثقلت كاهله السنون لم يجد المغرب "اغليدا" وهب مواهبه النادرة. وكتب "ستيفان قزال" في إيجاز عجيب: "كان مسنيسا من بين ملوك البربر أعظم العظماء فقد بز يوسف بن تاشفين المرابط وعبد المؤمن الموحدي والشريف المغربي مولاي إسماعيل الذين يوجد بينه وبينهم وجوه شبه كبيرة. فلقد بسط سلطانه من موريطانيا إلى بلاد القريني وجلب أموالا ضخمة وأنفق على جنود عديدين أشداء وعمم الفلاحة وشجع العمران. ولقد رأى فيه الإغريق والرومان الملك الحق. ونسي الكثير من رعاياه وربما أغلبهم حقدهم الغريزي للملوكية وساهم الود والخوف معا في تعلق الناس به وتواصلت عبادته على مر العصور".

وينتصب على بعد بضع كيلومترات من قسنطينة ضريح من الحجارة المنحوتة مستوحى بتصرف من الأسلوب الإغريقي يدعى "صمعة خروب" وقد رممه بدون تحر رجال يدعون أنهم ينتسبون إلى الفن. وفي سنتي 1915-1916 اكتشف أثناء أشغال الترميم قبر فيه، إلى جانب متاع كثير (سلاح، وآنية طعام وغيرها)، حوض من فضة مملوء رمادا. هي حفنات من الرماد فقط ولكنها قد تكون ما تبقى من مسنيسا إذا نحن اعتبرنا العصر والموقع والفن المعماري وعادة إحراق الموتى في ذلك العصر. ولربما انبعث من ضريح العاهل الكبير البربري المشرف على عاصمته أسوة وذكر للأجيال من بعده.

II - الحرب البونيقية الثالثة ونهاية قرطاج:

1 - مصرع حنبعل:

فرض شيبيون الإفريقي بعد معركة جامة معاهدة تقر انقراض دولتها. وقد لاحظ "ب. ڤوكلير" (Gauckler) عند إحصائه متاع القبور أن الحلي الذهبية مفقودة أو هي مزيفة وقد فقدت الحجارة الصلبة المحفورة ودمى العاج والميناء المنقوشة نقشا بارعا

والأواني الثمينة، وحلت محلها نقود قديمة متآكلة ومصابيح لم يعد القوم يحفلون بإسراجها قرب الموتى وآنية من الفخار عادية كثيرا ما تكون مثلومة.

ولئن خرجت الدولة مفلسة فإن الارستقراطية بقيت غنية. ولقد تحامل الرأي العام على كبار التجار والملاكين الذين ما انفكوا يختلسون ثروات المدينة ويؤثرون بأنانيتهم في مصيرها أيما تأثير ومهد لحنبعل السبيل إلى الحكم. وعندما عين سنة 195 شافطا أراد تحطيم طبقة الأقلية الحاكمة بجعل القضاة حكاما يعينون كل سنة كما أراد الضرب على أيدي المرتشين. فكان في ذلك الحكم عليه بالإعدام.

وندد الارستقراطيون الذين كانوا يضعون مصالحهم فوق مصالح قرطاج في رومة بأعمال حنبعل الثورية واستعدوا لتسليمه إليها. فتمكن من الفرار في الوقت المناسب والالتحاق بسوريا حيث حاول أن يستفز الملك "أنتيوخوش" لشن حرب عامة على رومة. غير أنه عندما نقلت رومة الحرب إلى الشرق وهزمت "أنتيوخوش" طالبت في بنود الهدنة (أوائل سنة 189) بتسليم حنبعل ولكن البرقي أفلت مرة أخرى من قبضة المنتصر وسار إلى "الكريت" (جزيرة اقريطش) والتحق بأرمينية فهدى الوالي الفارسي إلى موقع يبني فيه عاصمته ثم توجه إلى "بوتينا" حيث انتصر الملك "بروزياس" على جيوش "برغام" بفضل إعانة حنبعل. فكانت آخر مرحلة من حياة الترحال. ذلك أنه تجرع السم في الوقت الذي عزم فيه "بروزياس" على تسليمه إلى رومة بأمر منها (سنة 184) وفي هذه السنوات العشر التي قضاها في المنفى لم تنفك وشايات قرطاج تلاحقه حيثما حل.

2 - نهوض قرطاج:

قد كان لقرطاج بالرغم عن إضاعتها لحنبعل من الموارد ما يكفيها لكي لا تبقى منخذلة طويلا. فانطلق التجار يخوضون البحر من جديد ويبحثون عن أسواق جديدة خاصة في الشرق وأصبح القرطاجي مرة أخرى شخصا مألوفا في مواني البحر المتوسط حتى أن "بلوت" جعل منه بطلا لإحدى مسرحياته.

ويظهر أن البونيقيين وجهوا جنودهم إلى إحياء الأراضي الإفريقية خاصة. فلقد فتح حنبعل الطريق لذلك في مدة حكمه القصيرة. فلما أتى "قاطون" إلى افريقية حوالي سنة 153 اندهش لخصوبة الأرض، ومن ذلك الوقت تزعم قاطون، ذلك الإقطاعي المحدود المدارك العنيد مع ذلك، طبقة المزارعين الذين كانوا يسيطرون على مجلس الشيوخ للمطالبة بهدم قرطاج (Delenda Carthago يجب تهديم قرطاج) التي ربما زادت منافستها في حدة الأزمة المتمكنة من الفلاحة الرومانية في أوائل القرن الثاني.

ورجع إلى قرطاج ازدهارها بسرعة جعلتها تعرض على رومة قبيل حربها ل"أنتيوخوش" أن تدفع حالا الغرامة الموزعة على أربعين سنة وتعرض عليها أيضا إعانتها بأسطول تصنعه لهذا الغرض. ولكن مجلس الشيوخ رفض عروضا كان من شأنها أن تجعل منه صنيعة الحكومة القرطاجية فتعسر عليه بذلك مراقبتها .

3 - هجوم مسنيسا:

كانت تجد رومة في مسنيسا حليفا تشجعه على التوغل في أرض قرطاج للحيلولة دون ازدهار الميناء الإفريقي خاصة وأن معاهدة 201 تحجر على قرطاج الذود عن حياضها بدون إذن من رومة.

وكان ملك النوميديين أمهر من أن يهمل استغلال هذه الفرصة. وبما أنه يمكن له المطالبة بما قد ملكه من قبل أباؤه وأجداده من تراب قرطاج فقد كانت ذاكرته تكتشف حقوقا قد جهلها والده "غايا" وذلك تبريرا لطلباته المتكررة. لذا شرع منذ سنة 193 في قطع لحم قرطاج إربا إربا ولم يكن الرومان ليعيروا أذنا صاغية لنداءات الضحية ولكنهم كانوا، عند أول بادرة تدل على المقاومة يثورون صيانة لجلالة المعاهدات المنتهكة. وكان رجال القانون المتصلبون يحقدون حقد التاجر الذي يرى أن الطرق صالحة ليجر بغريمه إلى الإفلاس.

وفي مواقف الجدال كان مسنيسا لا يكترث بتبرير ما يقوم به من أعمال ولكنه ينحي باللوم على قرطاج بدعوى خرقها لبنود معاهدة كان يواصل التشهير بها أمام مجلس الشيوخ خشية التورط. ولذلك فقد كشف النقاب قبيل حرب مقدونيا الثالثة عن محادثات سرية بين الملك (Persée) "برسيه" وقرطاج. واستغل ذلك ليفتك سبعين مدينة أو قصرا بونيقيا. فاحتجت قرطاج بشدة وطالبت بضمانات تجعل حدودها قارة، ولو أدى بها ذلك إلى التضحية من جديد. وكان مجلس الشيوخ يخشى حلفا بين قرطاج وملك مقدونيا فأقسم إنه لا يسمح لأي كان بأن يجرد قرطاج من أملاكها ولكنه ترك النوميدي حرا لمواصلة أعماله.

وفي سنة 162 احتل مسنيسا الأراضي الخصبة (مراكز التجارة) (Emporia) أي جهة سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى. فحاول السفراء الرومان بكل ما وسعهم من حيلة أثناء القيام ببحثهم أن يبرروا شرعية هذا التعدي كما أقر بذلك "تيت ليف" نفسه.

وبعد ذلك بتسع سنوات أتى دور الدخلة (Campi magni) التي كانت خيراتها تغري منذ زمن بعيد الأغليد. وفي هذه المرة كان الأمر من الصعب تبريره. فأتى "قاطون" ومن

معه في بطء شديد ليعاينوا أنه قد قضي الأمر ولم يعد في الإمكان منع الاحتلال (سنة 153) غير أنهم أدركوا أن الإفراط في ضرب الحيوان يحمله على الغضب ويدفعه إلى التكشير عن أنيابه.

4 - الصمود في وجه مسنيسا:

كون مسنيسا أنصارا في قرطاج نفسها. ولكن الشعب تعاظم شعوره بالحرية أمام الخطر واشتدت غريزة المقاومة فيه عنيفة. فحمل قائديه "عبد ملقرط السمني" و"كارتالو" على الإذن بطرد المشكوك في أمرهم، وابتداء من سنة 154 أعدت المدينة العدة للقتال. ولقد ظن سفراء سنة 153 أن قرطاج تقوم باستعدادات سرية فطالب "قاطون" بمحق قرطاج كرد فعل. غير أن حزب "شيبيون نازيكا" أقنع مجلس الشيوخ بأن يتوقف ذلك على قبول لجنة مراقبة. وساد أعضاء هذا المجلس الشعور بأنه يجب اعتبار خرق المعاهدة مدعاة لشن الحرب.

أما في بلاد البربر فإن الأحداث كانت تسير سيرها المحتوم. فكانت الديبلوماسية البونيقية تسعى إلى إثارة المصاعب في وجه مسنيسا على حدود موريطانيا، وكان "كارتالو" يجوب نوميديا طولا وعرضا محرضا الليبيين على الثورة. فانضم قائدان بربريان إلى العدو وتمكنت قرطاج في آخر الأمر من تجهيز جيش يعد 50000 رجل. وتقدم الأغليد النوميديين في ساحة الوغى راكبا فرسه وقد ناهز 88 حولا وقادهم إلى النصر (سنة 150) وكانت بعثة رومانية تستعد للتدخل فيما إذا انتصرت قرطاج وقال: إن شيبيون الإيميلي كان يبحث قبل ذلك عن الفيلة وشاهد المعركة من أعلى هضبة بدون أن يحرك ساكنا.

فاضطرت قرطاج إلى التخلي عن الدخلة (Campi magni) وتعهدت بأن تدفع غرامة قدرها خمسة آلاف وزنة أوبية أقساطا موزعة على خمسين سنة. وبذلك فهي لم تفلس في محاولتها فحسب بل فقدت كل أمل في أن تنهض اقتصاديا أو سياسيا. وعند ذلك ضربتها رومة ضربتها القاضية.

5 - الحكم بالإعدام على قرطاج:

كان مسنيسا يأمل أن يضم التراب القرطاجي لمملكته جزاء وفائه المتواصل لرومة. لكن مجلس الشيوخ كان يخشى أن يبرز إلى الوجود في يوم من الأيام حنبعل ثان من سلالة ماسولة. فيجد في قرطاج قاعدة يشن منها حربا جديدة على رومة. ولئن تركت

قرطاج وشانها فإنها واقعة لا محالة في قبضة الأغاليد. فكان من الواجب أن تكون نوميدية أو لا تكون. فقرر مجلس الشيوخ إزالتها تمام. ولكنه أراد تغطية نواياه بتعلات قانونية (شارل سومانيCh. Saumagne) من شأنها أن تبرر هذه الفعلة في اعتقاده.

ولكن قرطاج أحست بالخطر. فحكمت بالإعدام على مثيري الحرب وسألت رومة أن تطلب ما تريد. فلم يجب مجلس الشيوخ إلا أنه أمر القناصل بتجهيز أربع كتائب تضم 4000 فارس و50 سفينة خماسية، وبالالتحاق بميناء أوتيكة. وسقط الميناء في أيدي الرومان بدون ضجة. وأدركت قرطاج من كثر الجنود مدى الخطر فأعلنت بأنها مستعدة لقبول كل الشروط وقدمت 300 من الشبان النبلاء كرهائن أملا في إيقاف الغزو. ورغم ذلك فإن الجيش الروماني نزل بأوتيكة واحتل (Castra Cornélia) "كسترا كرنيليا".

وتسلم القناصل قبل أن يصرحوا بشروط رومة 200000 من الدروع و2000 منجنيق، وأخذوا المراكب فأحرقوها. ولما تيقنوا من أن كل خطر قد زال أعلنوا عن حكم مجلس الشيوخ. (وهو يفرض على القرطاجيين أن يتخلوا عن مدينتهم وأن يبنوها من جديد على بعد خمسة عشر كيلومترا من البحر. وتبقى لهم حرية اختيار الموقع كما يضمن لهم احترام معابدهم وقبورهم. وإن في هذا الحكم المسلط على هذا الشعب من البحارة نفاقا زاد في فظاعة قساوته.

6 - الكفاح من أجل البقاء:

أسقط في أيدي السفراء البونيقيين وعبروا عن تخوفهم من أن يثور الشعب. وكان الذي وقع أعظم من ذلك. فلما رأت المدينة أنه حكم عليها بالإعدام عزمت على أن تقاوم إلى آخر رمق من حياتها. ولقد صمدت مدة ثلاث سنوات كما تصمد الفريسة في وجه صيادها في شدة لم يقرأ مجلس الشيوخ لها حسابا. ولما وصل الجيش أمام قرطاج وجد الأبواب مغلقة وأعالي الأسوار مليئة بالقذائف. ولم ير القناصل في ذلك إلا سورة غضب بينما كانوا إزاء انتفاضة كاسرة. فعرضوا هدنة تدوم ثلاثين يوما من شأنها أن تهدئ الأعصاب.

فعمت حينئذ المدينة موجة عارمة من البطولة وروح التضحية. ذلك أن القوم لم يعودوا يقاومون لأجل مصالحهم فحسب بل في سبيل مثل أعلى. فاستغلوا جميع الإمكانيات. ويقال إن النساء أنفسهن تبرعن بشعورهن لفتل حبال المجانيق. وفي كل يوم كان يصنع 140 ترسا و300 سيف و500 رمح و1000 قذيفة. وفي هذه المرة كان الشعب مناهضا للشيوخ متقمصا فكرة الدفاع عن الوطن.

وتفطن القنصلان إلى أن الأحداث لا تجري على أحسن ما يرام فاستنجدا بمسنيسا، ولكنه لم يحرك ساكنا فقررا الاعتماد على النفس فحاول أحدهما بدون جدوى ردم خنادق البرزخ وخاب الآخر في هجوماته على الأسوار المشرفة على بحيرة تونس.إلا أنهما تحصلا على مناصرة "حضر موت" (سوسة) و"تابسوس" (رأس ديماس شمال المهدية) و"ليبتيس مينور" (لمطة) و"أشولة" (طبرية) ولكن بنزرت (Hyppo Diarrhytus) قليبية (Clupéa) ونابل (Néapolis) انتصرت لقرطاج.

غير أن صدربعل القائد الذي هزمه مسنيسا سنة 150 احتل هضبة نفريس (على بعد 30 كلم من الجنوب الشرقي من قرطاج) وهي هضبة تسيطر على الطريق الموصلة إلى سيرتا الصغرى بينما كانت كتائب فرسان "فامياس" (Phaméas) تناوش الجيش الروماني. فأرسل القنصلان النائب الشعبي شيبيون الايميلي ليحرض مسنيسا من جديد على التدخل. فلم يجد إلا جثة هامدة (سنة 148) ولكنه علم أن الأغليد خلف له وصية بتعيين خلف له. فعمل شيبيون بالوصية حسب مصالح رومة ووزع سلطان مسنيسا بين ثلاثة أشخاص بعد أن جعلته شخصية الملك النوميدي محطا للهيبة. ولعل رومة كانت مدينة له بتخلي فامياس عن مناوأته لها وقد كانت بينهما علاقة شخصية، وعلى كل فإن الشباب النائب الشعبي أظهر تفوقا على القواد الآخرين.

وكذلك فإن قنصلي سنة 149 و148 لم يكونا قادرين على القيام بمهمتهما. فأخفقا في هجومهما على المدن المتحالفة مع قرطاج ولم يتمكنا من منع صدربعل من الدخول إليها وإقرار نفوذه فيها. وكانت الديبلوماسية البونيقية تبحث عن حلفاء من بين الموريين والنوميديين. فقررت رومة عند ذاك إسناد القيادة إلى الرجل الوحيد الذي أظهر أنه كفء لها وهو شيبيون الايميلي فسمي قنصلا رغم أن عمره لم يتجاوز 38 سنة وأنه كان من الواجب أن يترقب خمس سنوات ليبلغ السن القانونية فسلم له الشعب افريقية بدون اقتراع ومده بكل ما طلبه من جيوش ونقود.

7 - شيبيون الإيميلي:

هو "شيبيون الايميلي" ابن "بول إميل" المهزوم في كأنه تبناه شيبيون الإفريقي. كرع من الثقافة اليونانية وشغف بمخالطة الأدباء ودرس فن الحرب. وهو الذي أوحى إلى القناصل بقراراتهم بالرغم عن أنه كان يحتل منصبا ثانويا.

وكان أول عمل قام به في ربيع سنة 147 هو التخلي عن ضاحية "مغارة " (قرب سيدي بو سعيد) حيث كان حاول القنصل لقاء العدو لقاء فيه مجازفة. وأراد شيبيون

بدوره اقتحام السور الشمالي فتمكن من الدخول على رأس 4000 رجل ولكنه لم يتسن له استغلال نجاحه.

وتوصل شيبيون بعد عشرين يوما بلياليها إلى سد البرزخ بإقامة سور يمتد من خليج تونس إلى سبخة أريانة ويعلوه برج ذو أربعة طوابق. لكن قرطاج بقيت تأخذ ميرتها عن طريق البحر. فسد شيبيون مدخل الميناء ورد القرطاجيون الفعل ففتحوا فرجة أخرى أخرجوا منها كتيبة سرعان ما اضطرت إلى التقهقر (صيف سنة 147) فاحتل شيبيون مرتفعا أقامه البونيقيون ومنه منعت مدفعيته كل توغل في الميناء فشلت بذلك حركة التموين. وبعد أشهر هزم الجيش البري ودخل "نفاريس" بعد حصار شديد. وانهزمت أيضا النجدات المرسلة إلى المحاصرين من موريطانيا. وحينئذ عهد شيبيون إلى صاحبيه "بوليب" المؤرخ و"باناتوس" الفيلسوف اليوناني بقيادة حملة بحرية أوصلتهما إلى ما وراء أعمدة هرقليس على سواحل المغرب الأقصى.

8 - احتضار قرطاج والقضاء عليها:

خابت المفاوضات التي قام بها أحد أبناء مسنيسا لإقرار السلم. ذلك أن صدربعل ما كان ليقنع بالنجاة بنفسه فضاعف شيبيون الإميلي عندئذ نشاطه لينتصر قبل أن تتم مدة تكليفه بمهام القنصلية. ففي ربيع سنة 146 أمر جنوده بالزحف. فافتك جيشه الميناء الحربي واحتل المدينة السفلى منزلا منزلا وعسكر في الساحة العمومية (Agora) في سفح هضبة "بيرصة" وفي الصباح أشعل الجيش النار في الشوارع وتواصل حصار القلعة طيلة ستة أيام بلياليها قبل القضاء عليها. وفي اليوم السابع سلم 55000 ساكن أنفسهم إلى المنتصرين. أما صدربعل فقد التجأ إلى معبد "اشمون" ثم استسلم إلى شيبيون وكانت زوجته قد خرجت في ثياب الزينة على مرأى منه ورمت بنفسها صحبة ابنيها في النار التي أضرمها الجنود الرومان الذين كانوا فروا من صفوف جيوشهم ففقدوا الأمل في العفو.

لقد كان مجلس الشيوخ قاسيا إذ كان نصيب الأسرى إما العبودية أو السجن المؤبد ودفعت بنزرت الثمن غاليا جزاء وفائها لقرطاج. فمحقت محقا ولعنت أرض قرطاج ونذرت إلى الآلهة ومنعت على كل من أراد البناء على أديمها. وكان مصير المدينة المحق التام وكان شيبيون المتشبع بالثقافة اليونانية هو الذي أشرف على تنفيذ هذا الحكم كما فعل بعد اثنتي عشرة سنة بالنسبة "لنومانس". فقام ببرودة تامة بدور الجلاد. وقيل: إنه شعر عند مشاهدة انهيار الجدران بأن الإمبراطوريات ليست خالدة وفكر في

مصير روما واستشهد على الأقل ببيتين قالهما "هوميروس" في مصائب طروادة.

III - الاحتلال الروماني:

1 - افريقية الرومانية (Africa Romana):

كان سقوط قرطاج معلنا بدء الاحتلال الروماني في افريقية. وكانت هيمنة مجلس الشيوخ لا تقتصر على محق أعدائه فقط بل تتعداه إلى اعتبار ترابهم أرضا رومانية. ولذلك فقد قررت هيئة متركبة من عشرة شيوخ ومكلفة بتقرير مصير ما كان لقرطاج من ممالك قبل الحرب تحويل هذه الممتلكات إلى مقاطعة رومانية (ربيع سنة 146) فكانت المقاطعة الإفريقية (Provincia Africa) أو إفريقية (Africa).

ولم تكن هذه المقاطعة ممتدة الأطراف. فمساحة الأرض التي يحدها الخندق الذي حفره شيبيون (Fossa Régia) لا تبلغ 25000 كلم مربع ولا تمثل إلا ثلث الجنوب الشرقي من البلاد التونسية حاليا. ويبدأ هذا الخندق (Fossa) من مصب الواد الكبير (La Tusca) قرب ميناء طبرقة (Thabraca) ويتجه إلى الجنوب الشرقي تاركا في التراب النوميدي باجة (Vaga) وتبرسق (Thubursicu) و دقة (Thugga) ثم يميل إلى الشرق ليصل إلى جبل فكيرين (في الجنوب الغربي من جبل زغوان) و كان يظن أن هذا الخندق ينطلق من تلك النقطة في خط مستقيم إلى أن يصل إلى هنشير طينة (Thaenae) (على بعد 12 كلم من الجنوب الشرقي من صفاقس) مارا بسبخة سيدي الهاني وسبخة القرة. غير أن شارل سوماني أقام الدليل في السنوات الأخيرة على أن هذا الخندق أكثر قربا من الحدود الغربية لأن المدن الحرة كانت توجد جنوب البلاد وشرقيها. ويوجد على التخوم الجنوبية لنوميديا و"إفريقية "أرض كانت تسكنها منذ زمن قديم قبائل من جدالة. وربما كان هذا الخندق موجودا بالقرب من سلاسل الجبال العالية التي توازي الساحل من جبل خشم إلى جبل فكيرين. وتنتهي هذه المقاطعة في سيرتا الصغرى (خليج قابس) وتبعد قليلا عن جنوب طينة. وهذه الحدود الأولية التي تضبط منتهي مطامح روما والتي لن تفكر في تجاوزها قد رمز إليها في عهد الإمبراطورية بأكوام من التراب.

وكانت روما كلما احتلت مقاطعة ضبطت مساحتها. ولعلها -كعادتها- شرعت حالما احتلت البلاد في تقسيمها إلى قطع مربعة مساحتها خمسون هكتارا تقريبا وهذا هو المقياس الذي استعمله فلاكوس (Flaccus) وقراكوس (Gracchus) سنة 122 ليوزعها قطع الأرض على المعمرين إن لم يكونا هما اللذان اخترعاه.

وهذا النوع من التقسيم المنسوب إلى ڤراكوس جرى به العمل إلى برو قنصلية فيبيوس مرسيوي (Vibius Marsus) (سنة 30/29 بعد المسيح) وصادف أن وجد شارل سوماني في الصور التي التقطها شركة الملاحة الجوية الفرنسية لفائدة جمعية الأوقاف التونسية ما مكنه من تعرف إحدى هذه العمليات الكبرى التي تناولت 000 15 هكتار تقريبا بين الجم (Thysdrus) وآثار الرقعة غربا والبحر شرقا. ولم تكشف الصور عن حدود المتمثلة في خطوط طويلة من الحجارة البيضاء والقطع ذات الخمسين هكتارا، بل كشفت عن آثار الأشجار التي كانت مزروعة وهي خطوط من العسير أن يتبينها المرء وهو على وجه الأرض.

و عهدت رومة حكم "إفريقية" إما إلى قاض في رتبة معين للقنصل (Curule) ويسمى بريطور (Préteur) أو إلى بريطور قديم يقوم مقامه ويسمى بروبريطور (Propraetor) ويعين لمدة سنة. ومنذ أن نظمت إدارة مقاطعة اسبانيا أصبح لرومة مسؤولون برتبة بريطور و ابتداء من عهد سيلا (Sylla) الذي جعل عددهم ثمانية وأجبرهم على ممارسة الحكم في رومة (سنة 81) لقب نائب الحاكم (Promagistrat) المكلف بافريقية يلقب بروقنصل (Proconsul) على غرار بقية الولاة إنه لم يكن للمقاطعة من الأهمية حينذاك ما من شأنه أن يغرى قدماء القناصل. ولا شك أن مجلس الشيوخ الجمهوري لم يكلف بإدارتها سوى حكام في رتبة بريطور.

أما في الساعات الحرجة فقد قاد القناصل بأنفسهم العمليات في المنطقة التي عينوا فيها من نوميديا كما عهد "بومبيوس" أثناء محاربته للقراصنه (سنة 67) بأمر الدفاع عن افريقية إلى أحد مساعديه البريطوريين الاثني عشر(Légats Prétoriens)، و كان حينئذ صاحب النفوذ المطلق على كامل المنطقة التي كانت تتوغل خمسين ميلا داخل البلاد. وقد احتفظت "إفريقية" رغم الحروب الأهلية بنفس النظام إلى عهد قيصر(سنة 46).

وكان الوالي المقيم في "أوتيكة" مع مساعديه (Légati) وأعوانه(Comites) (Amici contubernale) الذين يختارهم هو بنفسه يدير عمليا مقاطعته بدون مراقبة ويساعده في ذلك وكيل مالي (Quartor) يعينه مجلس الشيوخ ومهمته السهر على خزينة الدولة ونيابة الوالي إذا تغيب (Quartor propraetor)، وكان الوالي مكلفا بالدفاع عن الحدود من هجومات النوميديين أو القراصنة، والمحافظة على الأمن الداخلي بواسطة جيوش يعين مجلس الشيوخ كل سنة عدد جنودها. ولكنه كثيرا ما يضطر زمن الحرب

إلى الاستعانة بالاغاليد الحلفاء، و في المقاطعة نفسها فإن القوات لا تكفي للمحافظة على النظام.

وقد تحصلت سبع مدن إفريقية على حريتها جزاء إعلانها القطيعة بينها وبين قرطاج، و هي موانى أوتيكة وحضرموت ولمطة و رأس ديماس وأشولة وأوسلة، وكذلك مدينة تقع وراء خليج بنزرت وهي تودالوس. وفي سنة 111 أصبحت لبدة الكبرى (Leptis magna) صديقة الشعب الروماني. وكانت هذه المدن تدير شؤونها بحرية وتتحصل على بعض الأراضي التابعة لأملاك رومة. ولكنها كانت خاضعة ولا شك إلى التزامات عسكرية ومالية.

2_ نظام الأراضي واستعمارها

حولت رومة الممتلكات القرطاجية والبربرية إلى أملاك عمومية، وكان على الرعايا الذين بقيت أملاكهم في حوزتهم بصفة وقتية أن يدفعوا ضريبة قارة تعرف بضريبة المهزومين تستخلصها شركات ملتزمة وكانت المهام موزعة في الأول بين الدوائر الثلاث (Pogi) ثم بين الجباة المرتزقة (Stipendiari) في كل دائرة. ولم تهتم الجمهورية بمصير الأهالي الذين بقوا على التقاليد البونيقية، والذين لم تؤثر فيهم المدنية اللاطينية وتجاهلت، على الأقل رسميا، هيئاتهم البلدية. وكان الوالي مهتما في المقام الأول بتنمية مصالح مستخلصي الضرائب ورجال الأعمال (Publicains) والتجار الكبار. ولعل الرومانيين العائشين في افريقية كانوا يقيمون خاصة في أوتيكة إلى سنة 123 ولم يهتموا إلا بشؤون التجارة والحكم. وكان الثلاثمائة تاجر وممول يقومون بالدور الرئيسي.

3 - كايوس قراكوس

قام بالمحاولة الأولى لتعمير البلاد ثاني ألقراك (كايوس سمبرونيوس قراكوس) لكن الطبقة الارستقراطية (Optimates) اتخذتها ذريعة للهجوم على المصلحين فكان انقلاب سنة 121 الذي قضى على حياة كايوس وأنصاره، كما وضع حدا لما شرع فيه من عمل. ويجدر اطلاع على قصة كركوبينو المؤثرة البليغة والتي لا معقب لها في كتابه "حول ألقراك" (Autour des Groupes) ولا اعلم وصفا أوضح ولا ابلغ من وصفه لشراسة طبقة أخس الوسائل للقضاء على مصلح اجتماعي.

ففي سنة 133 أمكن ل. تي سمبرونيوس قراكوس (Tl. Sempronius Grachus) وكان أكبر سنا من كايوس أن يحمل مجلس الشيوخ على المصادقة على قانون يعرف

بقانون سمبرينيوس يحدد أقصى ما يمكن أن تملكه عائلة بـ 250 هكتارا. ويقضي بتوزيع الأراضي المتنوعة على المواطنين الفقراء قطعا لا تتجاوز الواحدة منها سبعة هكتارات ونصفا. كما احدث بمقتضى نفس القانون لجانا ثلاثين مكلفة (Triumvir) بتوزيع الأراضي (Triumviri Agri iudicandis Adsignandis) والإشراف على توزيع القطع وحسم الخلافات.

وكان يظن المؤرخون أن أعضاء هذه اللجان الثلاثة المنتخبين لمدة سنة والذين كان يمكن تجديد انتخابهم، يعمل بعضهم مع بعض. إلا أن كركوبينو أقام الدليل على أنهم يعينون مدى الحياة ويقومون بعملهم بالتناوب. واستنتج من هذا الاكتشاف نتائج هامة جدا وخاصة فيما يتعلق باستعمار قرطاج.

وابتداء من سنة 133 سمي الشاب "كايوس" ولم يمض على تعيينه سنتان حتى مارس نفوذه الفعلي فانتزع قدرا كبيرا من الأراضي التي احتكرتها طبقة النبلاء (Optimates) ووزعها (Assignation) وقد ضمت اللجنة الفلاحية ابتداء من سنة 129 ثلاثة أصدقاء لهم نفس الاندفاع وهم: كايوس وفلبيوس فلاكوس وس. بابيروس كاربو (Caïus, M. Fugvius Flacus. Papirius Carbo) غير أن مجلس الشيوخ تمكن من شل نشاطها بتجريدها من مشمولاتها القضائية.

ولما رجع كايوس من سردانيا سنة 125 للاضطلاع من جديد بمهامه في اللجنة الثلاثية سعى في أن ينتخبه القوم نائبا للطبقة الشعبية (Tribuns) وبادر بحملهم على إجراء استفتاء قضى بإرجاع مشمولات اللجنة الفلاحية فتمكن من وسائل العمل التي حرم منها منذ ست سنوات فعاود طبقة النبلاء من جديد شبح الإصلاح الفلاحي.

وقد زاد في تفاقم الخطر أن الفقراء كانوا على وشك التمرد وتصدت الأقلية الحاكمة في مجلس الشيوخ لهذا الخطر ولجأت إلى نفس الطرقة التي لجأ إليها البرجوازيون الفرنسيون في الجمعية الوطنية أيام جوان 1848 أي إرسال المعوزين العاطلين والمهددين للأمن إلى افريقية كلفهم ذلك ما كلفهم. وخلافا لما يظن عامة فإن كايوس لم يتخذ هذا القرار الذي من شأنه أن يحوله عن رسالته بل النائب الشعبي "روبريوس" (Rubrius) هو الذي فعل وقد استجاب الرعاع في حماس إلى نداء الهجرة إلى وطن ثان حيث يكونون اسعد حظا شأنهم شأن العاطلين الذين كانوا يعملون في المعامل الوطنية سنة 1488 وصادقت القبائل على تعيين (déductio)) عدة آلاف من المعمرين وتوجيهيهم إلى افريقية. وزكى مجلس الشيوخ قانون "روبريوس" بارتياح يضاعفه إقصاء أعضاء اللجنة الثلاثية من ايطاليا. وكانوا هم الذين كلفوا بتنفيذ هذا القانون (سنة 123).

واتفق لفلاكوس أن قاد، حسب قاعدة التناوب، المعمرين إلى افريقية لم يكن عند تنصيبه لهم يجهل أن أرض قرطاج أرض ملعونة. ولذلك فقد عين مكان هذه المستعمرة الجديدة خارج المنطقة التي استنزلت عليها اللعنة وقسمها إلى قطع مساحة كل منها 50 هكتارا. وقد عثر شارل سوماني على آثاره على وجه الأرض ثم وسع فلاكوس نطاق هذا التقسيم إلى ما وراءها من أراض خصبة عمومية. ووزع بالاقتراع ما يقرب من 150000 هكتار، ورفع عدد العمرين إلى 6000، وكان من بينهم حتى الايطاليون الذين نبذهم القانون. ثم وضع مستعمرة قرطاج في حماية جونون (Colonia) (Junon Iunonia Carthago) الذي ورث مشمولات تانيت بينبعل(Tanit Pene Bâal) .

وأثناء غياب فلاكوس شنت الأقلية الحاكمة في رومة حملة واسعة النطاق على السياسة الفلاحية للجنة الثلاثية. واقترح النائب الشعبي م. ليفيوس روسوس (M. Livius Drusus) إحداث اثنتي عشرة مستعمرة جديدة ذات 3000 رجل ولم يكن ذلك لاستدراج الرعاع بل وبالخصوص ليثقل كاهل "كايوس" بعبء مسؤولية لا مناص له من الاضطلاع بها ليجعل التوزيع الاستعماري الذي ليس من شأنه أن يضر بمصالح الملاكين الكبار يحل محل استرجاع الأراضي التي كانت تطبقها اللجنة الفلاحية (سنة 122)

وكان "كايوس" يشعر أن وجوده في رومة ضروري لمقاومة الخطر الذي يهدد ما قام به من أعمال. ولذا فإنه عندما ذهب إلى قرطاج لتعويض "فلاكوس" رتب أموره ليبقى سبعين يوما فقط غير أن خصومه رموه عند رجوعه بخزي الاستعمار الإفريقي الذي لم يكن له فيه أدنى مسؤولية، ولم تتردد الأقلية الحاكمة في افتراء أشنع الأكاذيب لنشر البلبلة في صفوف أنصاره بأنه أثار غضب الآلهة عندما سمح للمعمرين الجدد بالاستقرار في أرض أنزلت عليها اللعنة ونجحت في الحيلولة دون أن ينتخب من جديد نائبا شعبيا وعرفت أيضا كيف تكسب ثالث الثلاثة واسمه "كاربو" فلما حان دوره ليقيم بقرطاج تواردت إلى رومة أخبار مريعة من الصعب أن يشك في صحتها لما بين "كايوس" و"كاربو" من صداقة متينة. فقد قلعت الريح العلامة التي كانوا يريدون إقامتها، وعصفت العاصفة فجرفت أمعاء الضحايا خارج المنطقة الملعونة. وحملت الذئاب معها الصوى وما كان لمخطئ أن يخطئ في فهم صبغة الإلهية لهذه الخارقة. كما أدرك ذلك "البرتيني" حق الإدراك فغمر "فلاكوس" و"كايوس" خضم هذه الأكاذيب التي كانت تبعث الرعب في قلوب الجماهير. وسرعان ما استغل الخصوم ما حطم سمعة هذين الكافرين وذهب بمشاريعهما كلها. وقامت محكمة تطالب بإلغاء أعمالهما في افريقية ونسخ القوانين القاضية بتأسيس مستعمرات في "تارنت وكابو".

ولم يبق "الكايوس وفلاكوس" ليحميا عملهما مما سماه "ج. كاركوبينو" عن جدارة "الخيانة الشنعاء" إلا الالتجاء إلى الثورة. ولكنهما أخفقا وهلكا كلاهما: "كايوس" منتحرا و"فلاكوس" تحت سهام الرماة الاقريطيين بإمرة القنصل اوبيميوس Opimius وكان قد عين بمقتضى قرار من مجلس الشيوخ لإنقاذ الجمهورية أو بالأحرى أراضي الارستقراطية المهددة. وعين "كاربو" جزاء خيانته قنصلا لدى المجالس المنتخبة التي كان يرأسها "اوبيميوس" وحق للخائن وللسفاح أن يفرحا وأن يسعدا بانتصار النظام القائم نصرا مبينا وصيانة الملكية الفردية. ونسخ قانون "مينوسيوس" أحكام "روبريوس" وألغى مستعمرة "جونون" (سنة 121) وبعد عشر سنوات ضبط "قانون طوريا" مصير الأراضي المستعمرة المنحلة فلم يطرد المعمرون ولكن قطع الأرض التي أتيح لهم أن يبيعوها تحول معظمها إلى الرأسماليين. وكونوا أملاكا شاسعة يزرعها الأهالي تحت إشراف ناظر وكان مجلس الشيوخ المحافظ يشجع كعادته المحتكرين بعد أن أحبط محاولات التعمير في قرطاج غير أنه تقرر أن تقدم تعويضات إلى كل مواطن روماني أو بربري قد تضطر الدولة إلى انتزاع أرضه بعد المزايدة العمومية.

4 - الأملاك العامة

وعلاوة على الأراضي التي تركتها رومة للمعمرين والى الجباة المرتزقة (Stipendiari) فإنها أبقت لنفسها أملاكا عمومية فسيحة جدا فأحالت قسما من هذه الأراضي إلى معمرين جدد خاصة إلى قدماء جنود "ماريوس" (قانون أبوليا سنة 103) والى المدن الحرة، وكذلك إلى الفارين من جيش العدو وإلى أبناء مسنيسا وباعت أيضا قطعا عديدة إلى مواطنين رومانيين مع استبقاء حقها في الملكية المتمثل في دفع أداء ولو بصفة نظرية. أما الأراضي التي لم تفرط فيها فقد آجرتها -ولاشك- لمربي المواشي والمزارعين مقابل معلوم تستخلصه شركة مستلزمة. وفي الجملة فإن الدولة لم تبق في نهاية الأمر إلا قسما ضئيلا من ممتلكاتها.

وكانت المقاطعة الرومانية تنتج خاصة القمح الذي تشتري شركة مستلزمة قسما منه لفائدة الدولة الرومانية وفي عهد ألقراك تفاقمت المركزية الرأسمالية. ففي افريقية وغيرها من البلدان كان الأشخاص مسؤولين في آن واحد عن استخلاص الضرائب وطحن الحبوب وتجهيز البواخر، وبذلك كانوا يراقبون النشاط الاقتصادي بأجمعه، فلم تنم التجارة وكان الازدهار ضئيلا فكان المزارعون ومربو المواشي يعيشون عيشا ضنكا وتسنى لرجال الأعمال وحدهم أن يملؤوا بطونهم وأغلب الظن-إذا اعتبرنا سلوكهم في أسيا- أنهم لم يتخلفوا عن ذلك.

5 - نوميديا وميسبسا

قسم "شيبيون الإميلي" إثر موت مسنيسا الملك بين أبنائه الثلاثة الشرعيين فأما الابن الأكبر "ميسبسا" فقد تولى الإدارة وجعل على رأس العاصمة وهي سيرته. وأما "غلوسة" فقد أخذ قيادة الجيش. وأما "مستنبعل" فقد اضطلع بمسؤولية القضاء. وبقي "غلوسة" الذي جلبه شيبيون إلى حصار قرطاج على وفائه له. ولم يظهر "ميسبسا" و"مستنبعل" سوى محاولات محتشمة للاستقلال. ولما انفرد "ميسبسا" بالحكم عند وفاة أخويه لم يشأ تعكير صفو شيخوخته بمناهضة رومة فزودها بالقموح والجنود والفيلة.

وسار في الداخل سيرة أبيه طيلة ثلاثين سنة (148-118) فقد زاد في تجميل سيرته التي جزم "سترابن" أنها كانت بفضله "مجهزة بكل شيء" وعاش "ميسبسا" في مدينته بين الأدباء والفنانين الإغريق ويقال أنه كان يمضي أوقات فراغه في البحث وخاصة دراسة الفلسفة.

وضرب نقودا بها صورة والده. بتنمية المدن وتنظيمها ففي عهده صارت باجة(Vaga) - وعلى رأسها مجلس شيوخ "بلة ريجيا" (قرب سوق الأربعاء) في الدخلة- مدينتين ويستبعد أن يكون استعمل ولاة ملوكيين لمراقبة الإدارة في المدن والأرياف. وفي عهده أيضا أمكن للتجار أن يتعاطوا نشاطهم بكامل الحرية في نوميديا.

ولم يبلغ "ميسبسا" عظمة "مسنيسا" ولكنه يبدو في نظر الرومانيين قويا. وقد ذهب المؤرخون حتى التساؤل فيما إذا كانت محاولة تعمير افريقية بالايطاليين التي قام به "قراكوس" عملية موجهة ضده.

وكان" ميسبسا" يود لو يقسم ملكه بين ابنيه الشرعيين "آذربعل" و"يمبسال الأول" (Hiempsal) غير أنه كان في العائلة ثلاثة أبناء من إخوته فالأول هو"ماسيبا" ابن غلوسة وكان إذ ذاك طفلا صغيرا. وأما الآخران فهما ابنا "مستنبعل" "غودة" و"يوغرطة" فغودة وهو الابن الشرعي كان ضعيف العقل. أما "يوغرطة" وهو من أم ولد فقد كان -كما سيبين لنا ذلك التاريخ- شخصية ممتازة.

6 - يوغرطة

كان "يوغرطة" جميلا ذكيا يتقيد حيوية ماهرا في استغلال ضعف خصومه. ولكنه كانت تتوالى عليه حالتان: نشاط زاخر وانكسار كبير. وكان سحر فتيان رومة النبلاء

(سنة 134) أثناء حصار "نومانس" حيث كان في أركان حرب "شيبيون الإيميلي" واضطر "ميسبسا" أن يقرأ حسابا لشعبيته بين النوميديين، وللضغط الذي سلطه الإيميلي لفائدته فألحقه بنسبه وتبناه وعهد إلى ولديه والى ابن أخيه بالملك كاملا. غير أن أبناء العم الثلاثة لم يتفقوا على توزيع السلطة بينهم واستغل مندوب رومة هذا الخلاف لتجزئة المملكة النوميدية وإضعافها، كادت سياسة مجلس الشيوخ تدرك غرضها، فعوض أن تجد رومة نفسها إزاء مملكة نوميدية متحدة لن تجد إلا ثلاث ممالك متناحرة.

وما كان "يوغرطة" ليرضى بالتقسيم. فأوعز باغتيال "يمبسال" وهزم في ساحة القتال آذربعل الذي التجأ إلى رومة وبذلك ضمن لنفسه امتلاك نوميديا كلها (سنة 116).

وتردد مجلس الشيوخ في الموقف الذي يجب عليه أن يقفه. فكانت الأقلية بزعامة "م.اميليوس سككوريوس" تنوي بفضل الحرب أن تسلم افريقية لقمة سائغة لتجارة طبقة الفرسان ولكنها لم تتمكن من حمل أعضاء مجلس الشيوخ (Patres) على التصويت لأنهم أثرت فيهم عداوة الشعب أو رشاهم "يوغرطة". وكلف عشرة نواب يقودهم "اوبنيموس" العدو الألد للملك النوميدي وهو محافظ متطرف بفض المشكل على العين. وكان "يوغرطة يعرف معرفة جيدة طبقة النبلاء الرومان التي أفسدتها الرشوة وحب المال فتيسر لرسله تطمين المبعوثين الرومان الذين وافقوا على تسليم القسم الغربي من المملكة أي من غربي سيرته إلى نهر الملوية.

وثمة ترصد "يوغرطة" الفرصة السانحة طيلة أربع سنوات بينما استرجعت الطبقة الارستقراطية الحكم بفضل قضية الفسطال(Vestales) التي خرجت طبقة الفرسان منها مخزية. وفجأة زحف "يوغرطة" على مملكة "آذربعل" وطارده حتى بلغ سيرته ولم يحل بينه وبين الدخول إلى هذه المدينة سوى تدخل التجار الايطاليين المسلح (سنة 113) وترددت رومة التي كانت مهددة بهجوم التيتون (Les Teutons) في خوض المغامرة بغزوة في افريقية واستقدم وفد من مجلس الشيوخ كان "سكورس" أحد أعضاء الملك إلى "أوتيكة" واكتفى بمعسول القول. واضطر "آذربعل" إلى التخلي عن سيرته تحت ضغط الايطاليين الذين أخذوا بسلاحهم وقتلوا عن أخرهم كما قتل الملك (صيف سنة 112) فلم يكن لرومة عند ذلك بد من أن ترد الفعل.

حرب النبلاء

اتفقت جميع الأحزاب على تحطيم البربري غير أن حربا طويلة مشكوكا في نتيجتها لا يعززها ولا يقوها أمير بربري كان يخشى أن تؤول إلى خيبات ذات انعكاسات سياسية خطيرة. ولمغالطة الرعاع تظاهر مجلس الشيوخ باستئناف عمل "ألقراك" وإعطائه الصبغة الشرعية بسن "قانون ثوريا" سنة 111 وانطلت الحيلة. ويقول ج. كاركوبينو: أن الشعب رحب كما لو كان هو المنتصر بالمصادقة على ذلك القانون الفلاحي الذي كان يفعل بلبه مفعول الطلسم وإن لم يكن من أثر له سوى انتزاع أراض جديدة من حيز الأملاك العامة، ولا من غاية سوى توتير الأعصاب بغية التمهيد للحرب الإفريقية".

وقام رجلان من الطبقة الارستقراطية: القنصل "كلبرنيوس بستيا" خائن ألقراك" وأمير مجلس الشيوخ "سكوريوس" وهجما على مملكة يوغرطة ثم قبلا لتفاوض معه بطلب منه وسالماه مقابل مقدار بخس من المال والماشية وأكد "سالوسطس" أن يوغرطة اشترى ذمتهما وليس هذا بغريب وربما يجب أن نتبين مع "كاركوبينو" من تسرعهما إلى المصالحة اعتبارات انتخابية بالنسبة "لبستيا" ورغبة " سكوريوس" في أن يسلم فورا إلى الرأسمالية الرومانية سوق "ليبتيس مقنى" (لبدة) التي لم يمض على خروجها من التبعية النوميدية زمن طويل.

وفضح الحزب الشعبي في ضجة ارتشاء النبلاء وطالب بحضور يوغرطة كشاهد فتجاسر يوغرطة وقدم إلى رمة وليس من المستبعد أن يكون بستيا وسكوريوس قد أحاطاه علما بما جري فقام أحد نواب الطبقة الشعبية وأمر يوغرطة بتوضيح موقفه لكن نائبا آخر منعه من الكلام.

ويظهر أنه من الصعب أن نعزو -كما ظنه ستيفان قزال- هذه المقاطعة إلى رغبة القوم في تجنب نقاش يمس بكرامة المجلس. فرومة عرفت الكثير من هذه المناقشات خاصة وأن بسطة النائب الأول كشفت جميع الفضائح ولم يكن من عمل الثاني الموافق للمجلس إلا منع إثبات ذلك. وأسرع القوم في حض الأغليد على السفر وقد كان "لبقشيشه" مفعول ساحر ووصلت به الجرأة إلى أن أوعز بقتل أمير بربري مناوئ له في رومة نفسها. وقيل: أنه عندما كان على أهبة السفر ألمع الموقف في جملة مقتضبة جزئية وقال: "مدينة للبيع مصيرها الهلاك إن وجدت من يشتريها".

ونجا يوغرطة لأن في إدانته إدانة "بستيا" القوي وشركائه. ولكن كان من الصعب أن تقف الأمور إلى هذا الحد: فقد سلمت مقاليد المملكة النوميدية إلى القنصل

بوستيميوس البينوس الذي كان ينتظر دوره في قيادة الحرب. وجر الأغليد خصمه في مفاوضات لا نهاية لها. فاضطر إلى التخلي عن قيادته لمعالجة وضعه السياسي في رومة. وعوضه في القيادة أخوه اولوس -Aulus) وأسند إليه لقب مساعد (Légat) ولأول مرة يمنح لقب نائب للقائد (Legatus propraetor) فانهزم في زحفه على ستول (وليست هي قالمة بل مدينة قريبة منها) واضطر إلى الخروج من البلاد في أجل لا يتجاوز عشرة أيام (شتاء سنتي 110 و109).

وهكذا لم تكشف طبقة النبلاء عن ارتشائها فقط بل عن عجزها أيضا. فأمرت مجالس الانتخاب بفتح بحث عن فضائح افريقية. وكانت تقصد بالخصوص سكوروس التي كانت أعماله محطا لكثير من الريب. غير أن أمير المجلس كان أقوى من أن يتنازل لتبرير موقفه. فقطع الداهية المناور صلته بطبقة النبلاء واتجه نحو الفرسان والشعب وتوصل إلى أن يعينوه على رأس لجنة البحث وتخلص هذا المدافع بحق عن الفضائل الجمهورية من متطرفي اليمين. فلم يبق لاونيموس زعم الرجعية السفاح وألبينوس وبستيا إلا طريق الهجرة. ورمي إلى السوقة بفريسة تتلهى بها وهو قانون فلاحي جديد (lex. mamilia agraria) (سنة 109) أكثر مهارة من قانون ثوريا لأن غرضه هو تحويل الأراضي العمومية تحويلا جماعيا إلى الرأسماليين والمتوسطين المقيمين بايطاليا من غير أن ينتفع فقراء المدينة بالحركة التي غذتها ثورة "ألقراك" باسمهم (ج. كركوبينو) غير أن الشيوخ المنتصرين الذين اتحدوا مع الفرسان ونواب الطبقة الشعبية ليخدعوا الشعب سيلقون من بعد مع ماريوس (Marius) جزاء ما قمت أيديهم.

8 - ميتيلوس

وأول نتيجة الاتحاد كانت انتخاب ميتيلوس أحد المتوطئين مع سكورويوس (وهو كيسليوس ميتيلوس وقد لقب فيما بعد نوميدوكوس) وكان هذا الارستقراطي الذي تولى قيادة الحرب بإفريقية نسيج وحده (Rara avis) أمانة وثقة. وحرص مع مساعديه ريتيلوس روفوس (P. Rutilius Rufus) النبيل المتصلب وماريوس- الرجل الجديد- على إرجاع الطاعة في صفوف الجيش بعد أن اضطرب حبلها بسبب عجز القواد وتواطئهم (ربيع سنة 109) وعندما عرف يوغرطة أنه لا يمكن له اشتراء ذمة هذا الرجل ولا التلاعب به عرض عليه مرتين اثنتين أن يوكل أمره إلى رحمة الشعب. وأعار القنصل أذنا صاغية لهذه العروض ولكنه اكتفى بحمل الرسل على اغتيال ملكهم.

توغل الجيش في الأرض النوميدية من دون أن تعترضه أية عقبة مخترقا وادي مجردة

واحتل باجة مستودع القموح بالنسبة للسهول الكبيرة. وقرب "مطول" (وهو واد ملاق حسب قزال وواد تسه حسب شارل سوماني) اصطدم بجيوش العدو وشتتها شر مشتت وانتصر عليها انتصارا دفع ثمنه غاليا (أوت سنة 109) عند ذلك عاث ميتيلوس في البلاد ودخل الكاف (Sicca) التي فتحت أبوابها ولكنه لم يتجاوزها إلى التراب الجزائري وحاول أخذا بألباب الناس أن يشن هجوما على جامة (بين الكاف ومكثر) ولكنه أخفق واضطر إلى الرجوع على أعقابه (أكتوبر سنة 109) وعند انتهاء مدته أقره مجلس الشيوخ قائدا ولقبه بلقب قنصل مساعد.

وفي شتاء سنتي 109 و108 اغتنم أهالي باجة الاحتفال بالإلهتين "سريراس" (Cérères) للفتك بالرومان كلهم باستثناء قائدهم. فأسرع متيلوس إلى المدينة وعاث فيها فسادا ولم يكن ذلك إلا حادثا طارئا إذ أن خيبة جميع المؤامرات ضد يوغرطة اضطرته إلى مواصلة الحرب فسارت الكتائب مخترقة السباسب حتى تالة التي لا يزال موقعها محل نقاش وفيها اعتصم الأغليد. وبعد أربعين يوما دخلت الكتائب المدينة ولكن يوغرطة كان قد لاذ بالفرار ومعه كنوزه ثم استطاعت أن تقتحم سيرته حيث أقامت بها مدة الشتاء (108) وبذلك سيطرت على وسط نوميديا وشرقها.

وسعى يوغرطة حينئذ في إثارة عداوات ضد الرومان فجيش الجيوش من جدالة وأخذ يهيئ الجو لدى صهره ملك موريطانيا بوخوس الأول لحمله على التدخل فسار النوميديون والموريون معا في اتجاه سيرته. وعلم ميتيلوس في ذلك الوقت أن مساعده ماريوس عين قنصلا وعهد إليه بمواصلة الحرب في نوميديا. فكلف ريتيلوس بتسليم مقاليد السلطة. ذلك أن المجالس المنتخبة تركته ينتظر طويلا الإذن بالدخول إلى رومة حتى ينتصر على "النوميديين والملك يوغرطة" وليس من شك في أن فرسان افريقية كان لهم ضلع في أفول نجم رجل ما كانت أمانته لتسهل عليهم تجارتهم.

9_ ماريوس C. Marius

كان ماريوس من طبقة الفرسان وكان جنديا صعلوكا جلفا محدود الذكاء ولكنه شجاع قد برع في فنه. وكان يقول فيه شيشرون "هو دجل عديم الثقافة من فرسان اربينوم ولكنه رجل بحق".

وكان هيأ نفسه منذ زمان ليخلف حامية "ميتيلوس" الذي كثيرا ما جرح شعوره بكبريائه وعجرفته. ولقد قام بحملته الانتخابية ضد النبلاء وكون أنصارا من بين تجار اوتيكة وحمى "غودة" الضعيف ضد أخيه وتباهى بأنه رجل جديد حيث النعمة غايته

الانتقام من الأغنياء. ولأول مرة تألب على النبلاء الفرسان - وهم أعداء ميتيلوس- والرعاع وكانوا يعانون مرارة الخيبة. ثم فرضوا مرشحهم. فضم ماريوس المعدمين إلى كتائبه وكانت متركبة من المزارعين وحدهم ومهد بذلك الطريق إلى هؤلاء الجنود المحترفين الذين لا يهمهم من أمر رومة شيء إذ ربطوا مصيرهم بمصيرهم بمصير قائدهم وأصبحوا يولون ويعزلون الملوك وقد جيش على هذا الأساس جيوشا كثيرة.

وفي نوميديا عود جنوده الجدد بشن هجومات خاطفة على القرى والمدن ثم أراد أن يأخذ بألباب القوم فدفع في أواخر الصيف بجيشه نحو مدينة السباسب: قفصة (Capsa) بعد أن أجهده إجهادا ودخلها غرة. فأحرقها وأباد كل من كان في سن حمل السلاح من بين سكانها ولم يفقد ولو جنديا واحدا (سنة 107).

ولا نعرف في أي مكان قضى فصل الشتاء. وفي الربيع استأنف حملته وظل أشهرا عدة يجوب نوميديا الغربية إلى أن بلغ -حسب سالوسطس- الملوشة (الملوية) (سنة 106) وبالقرب من هذا النهر اغتصب الحصن المقام على تل وعر (ولعله حسب ج. كركوبيتوتل توريرت) وكان كنز الملك مودعا فيه. غير أن هذا الانتصار دفع القبائل المورية إلى التمرد على الرومان. وافلت ماريوس أثناء رجوعه، بأعجوبة، من هجوم يوغرطة وبوخوس ولكن أخذ بثأره ودخل سيرته منتصرا وقد احتلها النوميديون في غيابه (أكتوبر سنة 106) وهكذا خرج موفور الكرامة من معركة اخطأ فيها أفدح الأخطاء واشرف أثناءها على الخيبة لولا وكيل المال سيلا (Cornelius Sylla) الذي أبلى البلاء الحسن.

وفي السنة الموالية لم يبق ليوغرطة سوى قليل من الجنود ولم يعد يعتمد إلا على بوخوس وأصبح مستشار وملك موريطانيا الذين اشتراهم الرومان بواسطة عملاء سريين يدافعون عن رومة أثناء المفاوضات التي أجراها سيلا بكامل المهارة. فكاد بوخوس لملك نوميديا مكيدة وسلمه إلى وكيل المال الروماني.

ولم يغفر ماريوس لسيلا هذا الانتصار (صيف سنة 105) كما أن "بيجو" لم يغتفر للاموريسيار حصوله على استسلام عبد القادر. وأحس ماريوس كما أحس "بيجو" بعده بأنه أضاع شيئا من مجده في نظر الرأي العام لأن الانتصار لم يكن انتصاره إذ إن ديبلوماسية سيلا هي التي وضعت حدا لحرب دامت ثلاث سنوات.

وعلى كل فإن انتصاره كان باهرا (أول جانفي سنة 104) وبقي يوغرطة طيلة ستة أيام يقاسي الآم الجوع في "تلانيوم" حتى أراحه حبل المشنقة من كل ذلك. ولكن ذكرى

الأغليد الذي قاد النوميديين في كفاحهم ضد الاستعمار الروماني بقيت عالقة في أذهانهم.

ونال الخائن بوخوس شرف لقب حليف الشعب الروماني وصديقه وأسند إليه بعنوان الحث على الخير الثلث الغربي من نوميديا. أما القسم الشرقي فقد كان من نصيب غودة. وليس من شك في أنه وجد بين هاتين المملكتين دولة بربرية تفصل بينهما ممتدة الأطراف يسميها شيشرون "مملكة المستانزوسوس" (Mastanesosus) ولم تشأ رومة توسيع مقاطعة افريقية إذ أنها لم تكن لتخشى ملكا ضعيفا وملكا آخر عميلا ما كان يمكن لهما أن يمانعا في إفساح المجال للفرسان كي يتاجروا كما طاب لهم في بلادهما.

10 - بلاد البربر في أوائل القرن الأول قبل المسيح

لا نعرف شيئا ذكر عن بلاد البربر أثناء السنوات الخمسين التي تلت هذه الأحداث. ففي موريطانيا بقي بوخوس الأول أو القديم مخلصا لالتزامات نحو رومة وخاصة لصديقه القديم سيلا وظل يزود ملاهي رومة بالوحوش الضارية.

وكان القائد الديمقراطي سرتوريوس الوالي القديم لاسبانيا الجنوبية الثائر على السيليين تخلى عما كان يعتزمه من نزول بجزائر مادير(Madère) ودخل موريطانيا حيث زج بنفسه في الخلافات القائمة بين الأمراء المحليين ونجح في الاستيلاء على طنجة (Tingi) وارتاح الأهالي لإدارته وتبعه مئات منهم إلى اسبانيا التي دعاه إليها "اللوزيتانيون" (81-80) (Lusitaniens) بعد أشهر قليلة .

ولا نعرف في أي تاريخ انقسمت موريطانيا إلى مملكة غربية يملكها بوغود ومملكة شرقية يملكها بوخوس الثاني أو بوخوس الشاب. إلا أن هذا التقسيم كان موجودا سنة 9 منذ بداية الخلاف بين قيصر وبومبيوس. ويظهر أنه تم عند وفاة بوخوس الأول حوالي سنة 70. وربما استولى على نوميديا الغربية مسينسا جديد. وفي المملكة الشرقية مات غودة سنة 88 وخلفه ابنه يمبسال الثاني. وفي السنة نفسها عندما زحف سيلا على رومة فر ماريوس إلى افريقية وأطلق العنان لتأملاته بعد أن جلس "لاجئا على أطلال قرطاج" والتجأ ابنه إلى يمبسال ولم يتمكن من الفرار إلا بفضل مساعدة امرأة.

وفي سنة 84 تنازع الديمقراطيون والسيلانيون مقاطعة افريقية. وفي سنة 82 أحرق المواطنون الرومان واليا من شيعة ماريوس في قصره بأوتيكا لاستغلاله رعاياه استغلالا فاحشا سنة 82.

واغتنم حرباص أحد الأمراء النوميديين هذه القلاقل وأزاح عن العرش مسينسا ويمبسال ونصب نفسه أغليدا على نوميديا كلها وناصر جماعة ماريوس الذين كانوا ينظمون صفوفهم في الوطن القبلي بقيادة دوميتيوس احنوبربوس (n. Domitius Ahenobarbus). وبعد رجوع سيلا من الشرق كلف "بورمبوس"(Cn Pompelus) وهو فارس شاب في السابعة والعشرين من عمره بالدخول إلى افريقية حيث كتب له النصر فقتل دوميتيوس وخلع "حرباص" وأعاد يمبسال ومسينسا إلى عرشيهما فاعتبر سيلا أن نجاح هذا الشاب أسرع من المعقول فاضطره إلى التخلي عن جيوشه وإرسالها إلى رومة ولكن بومبيوس رفض ونال لقب "مانيوس الأكبر" (Magnius) ولقب المنتصر "خارج افريقية" (ex Africa) من غير أن يمارس القضاء 12 مارس سنة 80.

وبعد رجوع هذين الملكين إلى ملكهما لا نعرف بالضبط مصير الممالك النوميدية. فنحن فيما يخص "المملكة الغربية لا نتعدى الفرضيات. أما فيما يخص المملكة الشرقية فإن يمبسال الملك الأديب حكم في أمن وطمأنينة أكثر من عشرين سنة. أما ابنه "يوبا الأول" فإنه عند مناوأته قيصر لم يكن قد تحصل على لقب صديق الشعب الروماني الذي منحه فيما بعد وفي سنة 50 ذهب نائب الشعب "كوريون" (Curion) إلى أن اقترح تجريده من مملكته.

11 - أنصار قيصر وأنصار بومبيوس

كانت افريقية أحد الميادين الكبرى التي دارت فيها رحى المعركة بين أنصار "نومبيوس" وقيصر. ولما أجبر قيصر على خوض الحرب الأهلية بسبب التعنت السخيف الذي أظهره "بومبيوس" عندما رفض كل حل وسط وعبر الروبيكون (11 جانفي سنة49) غادر أنصار "بومبيوس" حينئذ ايطاليا لينظموا صفوفهم في البلقان وافريقية واسبانيا فقاد قيصر بنفسه الهجوم في اسبانيا وكلف "كوريون" بطرد "قاطون" حفيد "قاطون الأكبر" من صقلية ثم الدخول إلى افريقية حيث تمكن الوالي أتيوس فاروس "التابع "لبومبيوس"(.P Attius Varus) من محالفة "يوبا" وأصبح ماسكا بزمام "أوتيكية" و"حضرموت".

نزل "كوريون" على رأس كتيبتين بشواطئ الوطن القبلي وبعد أن سجل جيشه بعض الانتصارات استدرجه النوميديون وكادوا أن يبيدوه عن آخره في الشمال الشرقي من "الجديدة" وأمر "يوبا" بأن يأتي له برأس الرجل الذي أراد الإطاحة بملكه. أما الجنود الذين بقوا في كسترا كورنيليا (Castra cornélia) فإن أغلبهم هلكوا عندما أرادوا الالتحاق بصقلية، وأما الذين سلموا أنفسهم فقد أبادهم "يوبا" رغم وعود "فاروس" (سنة 49).

والذي زاد في فداحة هذه الكارثة أنها وقعت في نفس الوقت الذي انهزم فيه أنصار قيصر في دلماسيا (Dalmatie) و ثورة الكتائب في بليزنسا (Plaisance) أضفى مجلس الشيوخ الموالى "لبومبيوس" في مقدونيا على ملك نوميديا لقب صديق الشعب الروماني أما مجلس الشيوخ الموالي لقيصر فإنه قرر أن "نومبيوس" عدو ألد ومنعت ثورة جنود بيتيك "كاسيوس لونجيوس" (Casslus longinus) من الالتحاق بموريطانيا لمهاجمة النوميديين من الجهة الغربية وبقي أنصار بمبيوس يسيطرون على افريقية، أما قيصر فإن مهام أوكد كانت تنتظره في مكان آخر.

وعندما هزم قيصر في فرسال (بيتساليا) جيوش "بومبيوس" (9 أوت سنة 48)) انقسم أنصار "بومبيوس" فمنهم من تبع قائده إلى حيث قتل بأمر من مقربي الملك، ومنهم من التحق بافريقية مع "شيبيون" وهو زميل قديم لـ" "بومبيوس" في القنصلية ورجل جلف محدود المدارك، ومع ضابطين قديمين كانا تابعين لقيصر من "بيسونيوم" ثم تخليا عنه عندما هاجم معقل "بومبيوس" وهما "أفرانيوس" الذي عفا عنه قيصر بعد استسلامه في اسبانيا و"بنوس" أحسن مساعد لغازى بلاد غوليا.

وسرعان ما التحق بهم "قاطون" وهو رواقي متصلب كان يتصور الجمهورية تصورا خاطئا أخنى عليه الدهر وكان تقشفه ينسجم مع الدفاع عن "بومبيوس" مثل رجال الأعمال ولا يتعارض أيضا مع تدبير الزيجات الرابحة حسب ما ذهب إليه قيصر. فأقنع "قاطون" "فاروس" بأن ينسحب "شيبيون" وأشعر "يوبا" بأنه شريك له لا سيده. غير أنه لم يبد أي اعتراض في فرض الضرائب على الأفارقة لتكوين ميزانية للحرب. فنجد أنصار "بومبيوس" ما يقارب 40000 من المشاة و1500 من الفرسان وجمعوهم في ضواحي أتيكة خاصة بالقرب من "حضرموت" وكان "يوبا" على رأس جيوش جرارة وكان كل شيء يدل على أن حملة افريقية تبشر بالخير حتى أن "شيبيون" - وكان لا يترك فرصة تمر دون الوقوع في الخطأ- قال: "لم نعرف حملة أحكم ولا أكمل عدة من هذه الحملة".

فأقام ردحا من الزمن بها ثم قرر الانتقال إلى افريقية على رأس عشر كتائب أي بما يعادل جيوش "شيبيون". وكان يعتمد في مقاومته "ليوبا" على مساعدة "بوغود" و"بوخوس الأصغر" ملكي موريطانيا وأعانه إعانة حاسمة من حيث لا يحتسب "ستيوس"(.P Sittius) وهو رئيس عصابة إيطالي رأي من الأسلم له بعد الإفلاس والفضيحة أن يلتجئ إلى موريطانيا حيث خاض الحرب الأهلية مناصرا لقضية قيصر.

وكان قيصر مهيمنا على البحر فشقه بكل حرية مصحوبا بنصف جيوشه ولكن

العاصفة لم تسمح له إلا بإنزال 3000 من المشاة و150 من الفرسان قرب "حضرموت" (28 ديسمبر) فلم يتمكن من محاولة فتح المدينة عنوة بمثل هذا العدد الضئيل من الجنود وآثر الالتحاق بلمطة ثم روسبينا (وهي بلا شك هنشير تنير (ولا تبعد كثيرا عن المنستير). وعسكر بها. وكان لا مناص من أن تدور رحى المعركة على الأرض وكانت الدلائل تنبئ بأن الصفقة لن تكون في صالح قيصر الذي كان يأتيه المدد بصورة غير منتظمة.

وكان الخصم شديد البأس فقد كان لأنصار "بومبيوس" خيالة عتيدة يقودها "لابينوس" أحسن ضابط. ولما التقى الجمعان لأول مرة حاصرت خيالة "بومبيوس" جيش قيصر فلم يفك عنه الحصار إلا بمناورة جريئة. وعند ذلك زحف شيبيون بكتائبه الثمانية وكان "يوبا" قد تحرك هو بدورة ولكن "بوخوس وستيوس" قاما بهجوم فجائي وفتحا سيرتة فاضطر إلى الرجوع على أعقابه وحاصر أنصار "بوميبيوس" قيصر في روسبينا وكانت الميرة تأتيه بمشقة وأخيرا أسعفه أسطوله بالمدد وأصبح عدد جنده 33000 رجل. وعند ذاك فكر في الهجوم فبادر بالرحيل وعسكر على حافة نجد يشرف من الشرق على سهول اوزتة(Uzitta) وفر على بعد ثمانية كيلو مترات من الجنوب الغربي من رسبينا. وكان "شيبيون" أنزل فيها جيوشه التي عززها "يوبا" بثلاث كتائب. وظن قيصر أنه في إمكانه "أن يتوغل في الجاه المقلوبة(Aggar) (ربما تكون قرب قصور السلف على بعد 10كلم من الجنوب الغربي من المهدية و34 كلم من الجنوب الشرقي من معسكر قيصر) ثم حاول الهجوم مرات عديدة ناوشته فيها خيالية "لابينوس". وهكذا يتمكن بعد أن مرت أربعة أشهر على نزوله من أن يستدرج "شيبيون" ويحمله على الدخول في المعركة وجها لوجه.

فرحل فجأة مرة أخرى وعسكر برأس ديماس قرب تابسوس (ليلة 4 أفريل من سنة 47) وكان الموقع خطيرا يزيد في خطورته أن أنصار "بوميبيوس" كان في قدرتهم سد البرزخين اللذين يتصلان "بالدخلة" غير أن "قيصر" كان يؤمل التخلص من هذا الوضع بشن معركة نظامية.

وفي 6 أفريل قام بهجومين وهزم أعداءه. فأما الهجوم الأول فقد وقع تلقائيا ومن دون سابق قصد واستهدف جيش "شيبيون" فأرغمه على الفرار بسرعة. وأما الهجوم الثاني فقاده قيصر بنفسه نحو الشمال واستهدف معسكرات "افرانيوس" و"يوبا" في الجنوب واستولى عليها من دون قتال وراح جنوده بالرغم من ممانعته يقتلون أعداءهم قتلا ذريعا فبلغت خسائر أنصار "بومبيوس" 10000 رجل ولم يخسر أنصار قيصر إلا خمسين فقط

وفي نفس الوقت تقريبا أباد "ستيوس" الجيش الذي يحمي نوميديا تحت إمرة مساعد "يوبا".

13 - خضوع بلاد البربر ونظامها

اتجه قيصر بعد انتصاره إلى أتيكة وكان "قاطون" قد أغمد سيفه في بطنه إباء أن يستسلم لطاغية كان يمكن أن يعفو عنه مثلما عفا عن ابنه وقد احتاط قبل ذلك في رباطة جأش عظيمة فنظم فرار أصدقائه. وما نصب البرونز الذي عثر عليه حديثا في وليلي إلا دليل على ان ذكراه لم تمح حتى من افريقية.

وكان رجال المال وتجار هذه المدينة ينتظرون أن ينتقم منهم قيصر شر انتقام ولكنه اقتصر على مطالبتهم بدفع غرامة باهضة وأحرق جميع أوراق "شيبيون" المورطة كما فعل من قبل بأوراق "بومبيوس" أما "شيبيون" و"يوبا" فقد انتحرا. ونقل أنصار آخرون "لبومبيوس" الحرب إلى اسبانيا وفتحت جامه أبوابها لقيصر بعد أن أغلقتها في وجه ملكها القار فأحسن قيصر مكافأتها على ذلك. واستسلمت له جميع المدن إذ وضعت معركة رأس ديماس وانتصار "ستيوس" حدا لكل محاولة للمقامة.

وغير قيصر نظام افريقية تغييرا عميقا فأزال مملكتي "يوبا" و"مسينسا" للتين ناصرتا "بومبيوس" وجعل من القسم الشرقي من نوميديا مقاطعة نوميديا جديدة سماها افريقية الجديدة التي ضمت بعد عشرين سنة إلى القديمة التي سميت افريقية العتيقة.

وكان يحد افريقية الجديدة من الشرق خندق "شيبيون الايميلي" ومن الغرب الخط الذي يمر غربي عنابة(Hippo regius) وغربي قالمة (Calama) وجنوب غربيها. يصعب البت في ما إذا ألحقت سيرته إليها أو إلى افريقية العتيقة وتيسر لبوخوس الأصغر أن يوسع ممتلكاته نحو الشرق ولا شك أنها وصلت إلى المساقة (الواد الكبير). وربما كان هو الذي أقام قرب شرشال الضريح الفخم الأسطواني الشكل (قطره 64م. وارتفاعه 40 م تقريبا). وهو نسخة من المدراسن الذي سماه أهل البلاد "ضريح النصرانية" وأنشأ قيصر لفائدة سيتوس دولة فسيحة الأرجاء تفصل بين موريطانيا التي خرجت معززة من الحرب وبين افريقية الجديدة وتشتمل هذه الدولة على القسم الشرقي من مملكة مسينسا والقسم الغربي من مملكة "يوبا" أما مستعمرات سيرته التي استقر بها الستيون وهي مدينة سيرتة (قسنطينة) وسكيكدة (Rusicade) والقالة (Chullu) والميله (Milev)

فقد ألحقت من ون شك بعد موت الدكتاتور (سنة 44) "بإفريقية الجديدة". ولكن بقي لها من استقلالها القديم الحق في أن تتحد في ظل نظام إداري خاص.

14 - افريقية الرومانية في عهد قيصر

لم تعرف افريقية الجديدة الرومانية من أول وهلة بوجهها المشرق. فقد قام الحاكم الروماني الأول وهو المؤرخ سالوسطس بأعمال فظيعة بشهادة معاصريه أنفسهم وقد تجاوزت فظاعتها ما كان مألوفا. وقد أضيف الأراضي الملوكية إلى الأملاك العامة (Ager publicus) ويظهر أنها عادت بالفائدة لنفس الأشخاص.

ويستبعد ان يكون قيصر وجد الوقت الكافي لإنشاء مستعمرات في نوميديا إلا أنه أقر في افريقية العتيقة جماعات من أبناء الشعب المعوزين وقدماء الجند وكان في حسبانه أن يؤسس مستعمرة في قرطاج (Colonia Julia Carthago) على غرار قراكوس الذي اتخذه قيصر مثالا له. وقد ثم ذلك خارج المنطقة الملعونة حسب برنامجه وربما في نفس السنة التي اغتيل فيها أو عام أو عامين بعد ذلك على أقرب الظن. وقد استقر معمرون آخرون سنة 39 واحيوا عبادة سيرس (Cers) وأغلب الظن أن قيصر هو الذي أسس مستعمرات قربة (Curubus) قليبية (Clupèa) وهنشير مرايسة (Carpis) وبنزرت (Hippo Diarrhytus) والجم(Thysdrus) كلها كانت بالقرب من مدن قديمة.

وكانت افريقية مسرحا للاضطرابات بعد موت قيصر وتنازع أنصار قيصر والديمقراطيون حكم افريقية القديمة وافريقية الجديدة فاستبد به اوكتافيوس وأنطونيو وليبيديوس (Lépide) بحسب ما تعاقب من الأزمات أو الاتفاقات.

وأسندت إدارة افريقية العتيقة في هذه الأثناء إلى كورنيفيسيوس (Q. Cornificius) وهو جندي ديمقراطي صديق لشيشرون كان مجلس لشيوخ الحريص على تزويد رومة بالقمح يشجعه على الصمود في وجه مطامح أنصار قيصر. أما افريقية الجديدة فقد كانت مقاليدها في يد وال سماه قيصر يدعى ت.سكستيوس(T.Sextius) وسرعان ما جرده مجلس الشيوخ من كتائبه فكان لامناص من نشوب الخلاف بين أنصار سياستين متعارضتين. وقد ثارت بالفعل تلك الخصومة غداة تكوين الهيئة الثلاثية من أكتافيوس قريب قيصر ومارك انطونيو القنصل المنتخب سنة 44 و ليبيدوبوس وإلى اسبانيا السيترية والنربونية الذي لم يمر على تعيينه وقت طويل (27 نوفمبر 43) وعندما وزعت الولايات كانت افريقية من نصيب اكتافيوس وكذلك صقلية وسردانية. وسرعان ما

انضم سكستيوس إلى الهيئة الثلاثية فجيش جيوش في مقاطعته واحتل البلاد التي كانت تحت سلطة كورنيفيسيوس الذي لم يعترف إلا بسلطة مجلس الشيوخ. وبعد أن شن هجوما جريئا بلغ به إلى حضرموت رجع مدحورا إلى نوميديا. ثم أمكنه بإعانة الجيوش البربرية التي أسعفه بها ابن مسينسا أربيون أن يقوم بهجوم معاكس عنيف وأن ينتصر على كورنيفيسيوس فقتله وأصبح سيد "افريقية" الجديدة والقديمة.

وكانت نتيجة توزيع المقاطعات من جديد (سنة 42) أن أسندت افريقية القديمة إلى انطونيو والجديدة إلى أكتافيوس بينما وعدتا لليبيديوس وأدت القطيعة بين عضوي الثالوث إلى نشوب الحرب بين واليهما وانتهى الأمر لصالح انطونيو ولكنه اضطر إلى تسليم المقاطعتين إلى ليبيديوس الذي لم يسخر جيوشه الجرارة للفتوح واقتصر على تصريف شؤون الحكم طيلة أربع سنوات بدون أن يسجل أي عمل يدعو إلى الفخر (سنتي 40 و36) وابتداء من سنة 36 صار اكتافيوس سيدا أوحد على افريقية الجديدة والقديمة وممالك ستيوس التي سرعان ما كونت مقاطعة واحدة خاضعة لنظام البروقلصلية ومجلس لشيوخ (سنة 27).

وقد أقر سنة 29 معمرين جددا في قرطاج لا خارج المنطقة الملعونة بل في قلب المكان الذي كانت العاصمة البونيقية مشيدة فيه قبل ذلك بـ 117 سنة. ذلك أنه كان يشعر بأن له من القوة ما يستطيع معه أن يتحدى العواصف الدينية التي لم يتجاسر فلاكوس على تجاوزها. وبقي على فيرجيل (Virhale) أن يضفي على الواقعية الجريئة التي أظهرها "سيد العالم المنشط للنحل العامل تحت أشعة شمس الصيف" ثوبا من الشاعرية فخما.

وإذا كان من العسير معرفة ما كانت عليه قرطاج البونيقية فإن المستعمرة القيصرية تكشف إلى اليوم عن الخطوط العامة لهندستها. وقد أمكن لشارل سوماني بفضل دراسة آثار "الخنادق" حسب مبادئ Hromatici Veteres أن يثبت موقع الحارات الموزعة توزيعا منتظما والمجموعة في أربعة (Centuriae strihatae) وأن يضبط مكان (Decumarns maximus) و (Cardo maximus) وتوصل المهندس "دافان" حديثا إلى ضبط "الجزر" (insutae) وذلك بالاعتماد على آثار الخنادق التي كانت غالبا مبنية في محور الشوارع وبالاعتماد أيضا على نظام المباني المرتبط وثيق الارتباط بتخطيط الطرق العامة.

ولم يقصر "أكتافيوس" جهوده على قرطاج بل بدأ يسلك سياسة التعمير

والتمدين ثم توسع فيها بعد أن دشن "إمارة" بحمل لقب أغسطس فأسس بلديات أهلية مستقلة ومستعمرات في الكاف (Sicca veneria) وهنشير قصبات (Thurbubo maïus) وودنة (Uthina) من غير شك.

15 - موريطانيا في عهد اوكتافيوس

وبعد مقتل الطاغية استرجع أربيون ابن مسينسا الذي صحب أنصار بومبيوس إلى اسبانيا ملك أبيه على حساب ستيوس الذي تخلص منه وبوخوس. ولكن الوالي الروماني سكستيوس اغتاله لأنه انتصر بفضل إعانته فكان يخشاه واسترجع بوخوس الثاني ممتلكاته وتمكن من توسيعها بإضافة ممالك بوغود الذي كان انتصر لانطونيو على أوكتافيوس ومنذ ذلك الوقت امتدت موريطانيا من البحر الأطلس إلى المساقة (الرمل).

وعندما مات بوخوس لم يبق خلفا له فحكم أكتافيوس موريطانيا من دون أن يلحقها بممالك بصورة رسمية ولعله فعل ذلك بواسطة والين واغتنم الفرصة فأسس في موريطانيا التي كانت تابعة لبوخوس ست مستعمرات بالقرب من موان قديمة وهي: جيجلي (Igigili) وبجاية (Saldae) وعزفون أو ميناء قيدون (Port Huydon) على سواحل بلاد القبائل الكبرى ورأس متيفو قرب عاصمة الجزائر (Rusguniae) وقية سيدي إبراهيم قرب غرابة على بعد 28 كلم من غرابي شرشال(Gunugu) وتنس (cartennae) وثلاث مستعمرات في داخل البلاد: تيكلات على بعد 92 كلم من الجنوب الغربي من عناية (Zuchabar) وحمام ريغة (Aquae Calidae) ومليانة (Zachabar) وأسس في مملكة بوغود مستعمرات زوليل (أو زيليس؟) وهي أرزيلة بين طنجة والاعراش وبابا كمستريس (Babba Campestris) (وهي بلدة مجهولة قرب وزان) وسيدي علي بجنون على واد سبو بين بورليوتي والقصر الكبير (Valentia Banasa).

16 - يوبا الثاني

إن تأسيس هذه المستعمرات في مواقع طبيعية أحسن اختيارها لتكون مراكز إشعاع للنفوذ الروماني كان ينبئ على ما يظهر بإلحاق البلاد بالحكم الروماني. ولكن شيئا من ذلك لم يقع. ففي سنة 25 جعل أغسطس موريطانيا التي اتسعت حدود مملكتها تحت إمرة يوبا الثاني ابن يوبا الأول.

إن هذا الملك الشاب لنموذج بربري غريب. وقد ربته في رومة أخت أوكتافيوس في ظل أسر عمه الرخاء وزوجه حماته بكيلوبطرة سيلني ابنة كيلوبطرة الكبرى وأنطونيو.

وإذا تصدق على ابني عاهلين مخلوعين بمملكة فلأن في تربيتهما وتأثير رومة ضمانا لإخلاصهما للرابطة التي تربطها لرومة. وبهذا الثمن سمح أغسطس لنفسه بإرجاع الملك لأصحابه من دون أن يخشى شيئا.

ولم ينشط العاهل الجديد نشاط آبائه. ولما لم تترك له الحماية الرومانية إلا المظاهر فقد تسلى بالاعتناء بالمجموعات الفنية والأدب الرخيص.

لقد بني عاصمة في شرشال (101) وسماها قيصارية (Caesaria) لأرضاء سيد العالم وكان يأمر رعاياه بأن يقدسوا قيصر بصورة رسمية ثم جمل عاصمته بإقامة مبان ذات نمط كلاسيكي ويمكن لمن تأمل بعض آثارها اليوم أن يتصور مجموعة ضخمة من البنايات بما فيها المعبد والقصر والمسرح. وكان يوزع في كل مكان عددا من التماثيل مما هو الآن ثروة متحف عاصمة الجزائر وخاصة متحف شرشال. فتجد صورة ضخمة "لابولون" وهي ربما تكون نسخة من عمل قام به "فيدياس" (Phidias) في شبابه ونجد الآهتين لابستين الفستان الدوريسي وصورة لإلاهة أتينا من المدرسة نفسها ونصبا "لدينزوس" من مدرسة براكسيتال ونصبا آخر لافروديت نسخة من أصل وجد في القرن الثالث أو الثاني وكذلك صورة "الأغسطس" وهو لابس درعه وقد أصبح اليوم بلا رأس. ولا شك انه يجب أن ينسب إلى "يوبا" مجموعة البرونز الموجودة في متحف وليلي إذا كانت هذه المدينة كما ظن "كاركوبينو" عاصمة ثانية "ليوبا الثاني".

وكان هذا الملك يحسن اليونانية واللاتينية والبونيقية وكان في تآلفه آخذ من كل شيء بطرف فلم يبق علم واحد غريبا عنه. وكان في إمكانه أن يكتب في كل موضوع بفضل مكتبته الثرية ونساخه الذين لا يعرفون التعب غير أن تآليفه لم تبق بعده ولعله من المؤسف أن يكون كتاب "لبكا" Libyca قد ضاع إذ ربما وجدنا في كتاباته عرضا لبعض المعلومات عن التقاليد المحلية.

ولقد أثارت قبائل جدالة العراقيل في طريق هذا العاهل الذي لم يحجب لقب الملوكية المضفى عليه تبعيته الحقيقية وقال "ديون كاسيوس": " كانت حنقة على "يوبا" متمردة على رومة فثارت على الملك وعاثت فسادا في الأرض المجاورة وقتلت عددا كبيرا من الرومان ممن قد حاربوها قبل ذلك (نقل ستيفان قزال) ومن الطبيعي أن كان القائد الذي كلف بالتهدئة رومانيا وأن كانت هذه التهدئة من العنف بحيث استحق شرف الدخول في موكب الظفر بعاصمة رومة ولقب " قيتوليكوس" على حد تعبير "ديون". ونال "يوبا" الملك البربري نفس الشرف لأنه ساهم في انهزام البربر.

وسعيا في تلاقي هذه الأخطاء اتخذت أغسطس عدة تدابير إدارية وعسكرية -غير أنها لم تمنع شقا من الموريين من الانضمام إلى ثورة النوميدي "تكفارناس Tacfarinas" (سنة 17 بعد المسيح). وفي هذه المرة أيضا أعان ملك موريطانيا رومة على قمع رعاياه "المتمردين".

17 - بطليموس

توفي "يوبا الثاني" في أواخر سنة 23 وسنة 24 بعد المسيح وخلفه ابنه بطليموس فاقتصر طيلة أيام ملكه السبعة عشر على التباهي ببذخه موكلا السلطة إلى المعتقين من عبيده وذلك مما دفع -حسب تأسيت- عددا كبيرا من الموريين إلى مناصرة قضية "تاكفارناس" الذي لم تقدر عليه كتائب رومة حينذاك. وساهم "بطليموس" في مقاومة المتمردين وكان دائما مخلصا في وفائه إلى الإمبراطورية وجوزي على ذلك أكرم جزاء فقد أوعز الإمبراطور "قاليقولا" باغتياله في ليون ثم استولى على أمواله ومملكته (سنة40) وكانت هذه السنة نقطة انطلاق بالنسبة للعهد الموريطاني.

وقد تسببت هذه الجريمة في حدوث فتنة في موريطانيا امتدت إلى الأطلس تحت قيادة معتق من معتقي "بطليموس" وهو "آدمون" واضطر الإمبراطور "كلوديوس" حالما خلف "قاليقولا" إلى إرسال قواد كثيرين يظهر أن مهمتهم كانت شاقة لأن العمليات الحربية دامت عامين بعد موت الملك.

واقتفى القائد الروماني الجديد "بولينوس" آثار الموريين حتى جبال الأطلس حيث وصل بعد عشرة أيام من السير ثم شقها إلى أن وصل واد جار (ربما يكون واد قير) ولاقت الجيوش الأمرين من جراء العطش والحر والشتاء على أشده. ولم تستهو البلاد الرومان لرملها الأسود صخورها التي تبدو محترقة. ولم يظهر جليا من حملة "بولينوس" وحملة خلفه "جاتا" أن الرومان سرعان ما أدركوا مدى الخطر الكامن في رجل الصحراء.

وكان "قاليقولا" قد عدل عن إخفاء الهيمنة الرومانية تحت ستار الحماية فألحق بمملكته موريطانيا التي قسمها "كلوديوس" إلى مقاطعتين إمبراطوريتين: موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية (سنة 42) وكانتا قبل ذلك بيدي "بوغود" و"بوخوس".

وبذلك بسطت رومة نفوذها على بلاد البربر كلها وسوف يبقى الأمر كذلك طيلة 4 قرون كاملة إلى زحفة الوندال (من سنة 42 إلى سنة 429).

الباب السادس

افريقية الرومانية من عهد أغسطس
إلى غرديانوس الثالث: احتلالها وتنظيمها

1 - الاحتلال
2 - جيش افريقية.
3 - تنظيم المقاطعات والبلديات
4 - النمو الاقتصادي والاستعمار